

من اتعاض الحنفا للمقريري

المستعلي بالله أبو القاسم أحمد بن المستنصر بالله
أبي تميم معد بن الظاهر لإعزاز دين الله أبي الحسن علي
ابن الحاكم بأمر الله أبي علي منصور

ولد في ثامن عشر المحرم، وقيل في العشرين من المحرم، سنة ثمان وستين وأربعمائة، وبويع له في يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، حين مات أبوه المستنصر، وذلك أن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي عندما مات المستنصر بادر إلى القصر وأجلسه ولقبه بالمستعلي، وبعث فأحضر إليه نزارا وعبد الله وإسماعيل، أولاد المستنصر، فلما حضروا وشاهدوا أخاهم أحمد وكان أصغرهم، قد جلس على تخت الخلافة أنفوا من ذلك، فأمرهم الأفضل بتقبيل الأرض. وقال لهم: تقدموا وقبلوا الأرض لله تعالى ولولانا المستعلي بالله وبايعوه، فهو الذي نص عليه الإمام المستنصر، قبل وفاته، للخلافة من بعده. فامتنعوا من ذلك، وقال كل منهم إن والده وعده بالخلافة، وقال نزار: إن قطعت ما بايعت من هو أصغر سنا مني وخط والدي عندي بأني ولي عهده وأنا أحضره، وخرج مسرعا ليحضر الخط، فمضى من حيث لا يشعر به أحد وتوجه في خفية إلى الإسكندرية، فلما أبطأ أرسل الأفضل من يستعجله بالحضور، فلم يوجد، وفتش عليه في القصر فلم يوقف له على خبر ولا عرف كيف توجه. فاضطرب الأفضل لذلك، وانزعج انزعاجا شديدا .

وقوم يذكرون أن المستنصر كان قد أجلس ابنه أبا المنصور نزارا، لأنه أكبر أولاده، وجعل إليه ولاية العهد من بعده، فلما قربت وفاته أراد أن يأخذ له البيعة على رجال الدولة، فتقاعد له الأفضل ودافع حتى مات، وذلك أنه كانت بينه وبين نزار مباينة، وكان في نفس كل منهما مباينة من

الآخر لأمر، منها أن نزارا خرج ذات يوم من بعض أماكن القصر فوجد الأفضل قد دخل من أحد أبواب القصر وهو راكب، فصاح به: « انزل يا أرمني يا نجس»، فحقدتها الأفضل عليه، وظهرت كراهة أحدهما الآخر. ومنها أن الأفضل كان يعارض نزارا في أموره أيام حياة أبيه ويرد شفاعاته ويضع من قدره، ولا يرفع رأسا لأحد من غلمانه وحاشيته، بل يحتقرهم ويقصدهم بالأذى والضرر، فلما عزم المستنصر على أخذ البيعة لنزار اجتمع الأفضل بالأمراء الجيوشية وخوفهم من نزار، وحذرهم من مبايعته، وأشار عليهم بولاية أخيه أحمد فإنه صغير لا يخاف منه، ويؤمن جانبه، فرضوا بذلك وتقرر أمرهم عليه بأجمعهم ما خلا محمود بن مصال اللكي، من قرية يقال لها لك^(١) برقة، فإنه لم يوافق لأنه كان قد وعد نزار بأن يوليه الوزارة والتقدمة على الجيوش مكان الأفضل، فلما اطلع على ما قرره الأفضل من ولاية أبي القاسم أحمد مع الأمر وأنها قد وافقوه على ترك مبايعة نزار طالعه بجميع ذلك.

وبادر الأفضل فأجلس أبا القاسم ولقب بالمستعلي بالله. وأصبح في بكرة يوم الخميس لاثني عشرة بقيت من ذي الحجة فأخرجه إلى الإيوان، وأجلسه على سرير الملك، وجلس هو على دكة الوزارة، وحضر قاضي القضاة المؤيد بنصر الإمام علي بن نافع بن الكحال، والشهود، فأخذ البيعة على مقدمي الدولة وأمرائها ورؤسائها وجميع الأعيان، ثم مضى إلى عبد الله وإسماعيل ولدي المستنصر، وكانا في مسجد من مساجد القصر وقد وكل بهما الأفضل جماعة يحفظونها، فقال لهما: إن البيعة قد تمت لمولانا المستعلي بالله، وهو يقرئكما السلام ويقول لكما: تبايعاني أم لا؟ فقالا: السمع والطاعة، إن الله اختاره علينا، ووقف قائمين على أرجلها وبايعاه، وكتب كتاب البيعة وأخرج، فقرأه الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسيني الكاتب بديوان الإنشاء، على عادة الأمر وجميع أهل الدولة.

وكانت الدعاء عندما بلغهم موت المستنصر اختلفوا فيمن يبايعونه من بعده، فدعا بركات، وهو أمين الدعاء، لعبد الله بن المستنصر ونعته بالموفق، فقبض الأفضل عليه وقتله هو وابن الكحال.

ووصل الخبر بلحاق نزار ومعه محمود بن مصال اللكي بنصر الدولة، وأن نصر الدولة أفتكين التركي ، أحد مماليك أمير الجيوش، وكان على ولاية الإسكندرية، قد بايعه، والقاضي أبو عبد الله محمد بن عمار، وأهل الاسكندرية، وأنه تلقب بالمصطفى لدين الله، فأهم الأفضل ذلك وأخذ في التأهب لمحاربتهم.

وفيها توفي أبو عبد الحسين بن سديد الدولة، ذي الكفایتين، محمد الماسكي، وكان ممن وزر للمستنصر في سنة أربع وخمسين، فلما صرف عن الوزارة سار إلى مدينة صور من الشام فأقام بها عدة سنين، ثم إنه رجع إلى مصر وخدم مشارفا^(٢) بالاسكندرية بعد الوزارة، ثم صرف عن المشارفة، وكان من أمثال الكتاب وأحد الأدباء الفضلاء. ومن شعره:

توصل إلى رديك العود
وصانع بيعض الذي حزنه
تعش عيشة الأمن الغانم
ودع ما نعمت به في القدي
م، واعمل لذل الزمن القادم
لعلك تسلم مما تخاف
ولست، إخالك، بالسالم

وله عدة مصنفات ورسائل.

سنة ثمان وثمانين وأربعمائة:

في آخر المحرم خرج الأفضل بعساكره من القاهرة فسار إلى الإسكندرية لمحاربة نزار وأفتكين، فخرجوا إليه في عدة كبيرة وحاربا، فكانت بينهما عدة وقائع بظاهر الإسكندرية انكسر فيها الأفضل ورجع بمن معه منهزما يريد القاهرة، فنهب نزار بمن معه من العرب أكثر بلاد الوجه البحري .

ووصل الأفضل إلى القاهرة، وشرع يتجهز ثانيا لمسيره. ودس إلى أكابر من انتمى إلى نزار من العرب يدعوهم إلى التخلي عنه، واستمالهم بما حمله إليهم من الأموال وما وعدهم به من القطاعات وغيرها، وخرج وقد أعد واستعد، فسار إلى الإسكندرية وقد برزوا إليه، فكانت بينهما حروب آلت إلى هزيمة نزار والتجائه إلى المدينة، فنزل الأفضل عليها، وحاصرها، ونصب عليها المجانيق وألح عليها بالقتال، ومنع عنها الميرة.

فلما كان في ذي القعدة وقد اشتد الأمر على من بالإسكندرية جمع ابن مصال ماله وفر إلى جهة المغرب في ثلاثين قطعة، يريد بلده لك برقة من أجل رؤيا رآها، وهي أنه رأى في منامه كأنه قد ركب فرسا وسار والأفضل يمشي في ركابه، فقص هذه الرؤيا على عابر له فطانة وتمكن في علم التعبير، فقال له الماشي على الأرض أملك لها من الراكب وهذا يدل على أن الأفضل يملك البلاد.

وكانت الأنفس قد ملت طول الحصار ، فلما فر ابن مصال ضعفت نفس نزار وأفتكين وتخوفا ممن حولهما، فبعثا إلى الأفضل يسألان الأمان، فأمنهما، وتمكن من البلد، وقبض على نزار وأفتكين، وسير بهما مصر، فيقال إنه سلم نزارا لأهل القصر من أصحاب المستعلي، وأنه بني عليه حائط ومات، وقيل إنه قتل بالإسكندرية، والأول أصح.

وكان مولده يوم الخميس العاشر من ربيع الأول سنة سبع وثلاثين وأربعمائة. والإسماعيلية وملاحدة العجم وملاحدة الشام تعتقد إمامته وتزعم أن المستنصر كان قد عهد إليه وكتب اسمه على الدينار والطرز، وأن المستنصر قال للحسن بن صباح إنه الخليفة من بعده.

وكان للمستنصر أولاد فروا إلى المغرب، منهم محمد وإسماعيل وطاهر، وعاد منهم في خلافة الحافظ واحد إلى مصر ولا عقب له.

وأما أفتكين فإنه قتل بعد قدوم الأفضل إلى مصر. أما ابن مصال فإنه وصل لك ولقيه أهلها، وكان قد خرج منها صبيا فقيرا، فأقام عندهم أياما. واتفق أن رأى عجوزا عرفته، فقالت له: كبرت يا محمود! فقال لها: نعم. فقالت له: لعلك جئت مع صاحب هذه المراكب؟ فقال: أنا صاحبها. فقالت: ماذا يعمل عدم الرجال! ولم يزل يبعث إليه الأفضل بالأمان حتى قدم عليه، فلزم داره مدة، ثم رضي عنه الأفضل وأكرمه.

وكان الأفضل لما قبض على نزار وتمكن من الإسكندرية تتبع جميع من كان معه ومن ماله أو أعانة، فقبض على كثير من وجوه البلد، منهم قاضي الثغر أبو عبد الله محمد بن عمار واعتقله مدة ثم قتله، وكان حسنة من حسنات الدهر ونخبة من نخب العصر، وحظي عنده بنو حارثة، وكانوا من عدول البلد، لأنهم لم يبايعوا نزارا ولم يدخلوا في شيء من ذلك، وكانوا يهادون الأفضل سرا، وولى قضاء الإسكندرية عوضا عنه القاضي أبا الحسن زيد بن الحسن بن حديد، وبالغ في إكرامه وإكرام أهل بيته.

وكان الأفضل وهو على حصار الإسكندرية يخرج أمه فتطوف في كل يوم، وهي متنكرة بالأسواق، وتدخل يوم الجمعة إلى الجوامع وتزور المشاهد والمساجد والربط تستعلم خبر ولدها وتعرف من يحبه ومن

يغضه، فدخلت يوما إلى مسجد أبي طاهر وجاءت إلى ابن سعد الإطفيحي وقالت له: يا سيدي، ولدي في العسكر مع الأفضل، الله تعالى يأخذني منه الحق، ما فعل خيرا، وأنا ما أنام خوفا على ابني، ادع الله أن يسلم ولدي، فقال لها: يا أمة الله، أما تستحين، تدعين على سلطان الله في أرضه، المجاهد عن دين الله تعالى، الله ينصره ويظفره ويسلمه ويسلم ولدك، ما هو إن شاء الله إلا منصور مؤيد مظفر، كأنك به وقد فتح الإسكندرية وأسر أعداءه، وأتى على أحسن قضية وأجمل طوية، فلا يشغل لك سر، فما يكون إلا الخير إن شاء الله.

ثم اجتازت بالفار الصيرفي بالسراجين من القاهرة، فوقفت عليه تصرف منه ديناراً - وكان إسماعيليا متغاليا - فقالت له: ولدي مع الأفضل وما أدري ما خبره، فقال لها: لعن الله المذكور الأرمني الكلب العبد السوء بن العبد السوء، مضى يقاتل مولانا ومولى الخلق؟ كأنك والله يا عجوز برأسه جائزا من هنا على رمح قدام مولانا نزار ومولاي ناصر الدولة إن شاء الله تعالى^(٣)، والله يلفظ بولدك، من قال لك تخليه يمضي مع هذا الكلب المنافق

ثم وقفت يوما آخر على ابن بابان الحلبي، وكان بزازا بسوق القاهرة، تشتري منه شيئا - وكان نزاريا - فقالت له كقولها للفار الصيرفي، فقال لها كما قال أيضا، وبالغ في لعن الأفضل وسبه.

فلما أخذ الأفضل نزارا وناصر الدولة، وفتح الإسكندرية، وقدم إلى القاهرة في يوم^(٤).... حدثته أمه الحديث بنصه. فلما خلع عليه في القصر بين يدي الخليفة المستعلي في يوم^(٤) وعاد إلى مصر اجتاز بالبزازين وهو بالخلع، ونظر إلى ابن بابان الحلبي وقال: أنزلوا هذا، فنزلوا به، فضربت عنقه تحت دكانه، ثم قال لعبد علي، أحد مقدمي ركابه: قف هنا لا يضيع له شيء من دكانه إلى أن يأتي أهله فيتسلموا قماشه، ثم وصل إلى

السراجين، فلما تجاوز دكان الفار الصيرفي التفت إلى جهته وقال: انزلوا بهذا، فنزلوا به، فقال: رأسه، فضربت عنقه، وقال ليوسف الأصفر أحد مقدمي الركاب: احتط على حانوته إلى أن يأتي أهله ويتسلموا موجوده، وإياك ماله وصندوقه، وإن ضاع منه درهم ضربت عنقك مكانه، كان لنا خصماً أخذناه وفعلنا به ما نردع به غيره عن فعله، وما لنا في ماله ولا في فقر أهله حاجة.

ثم أتى إلى الشيخ أبي طاهر الإطفيحي، وقربه وتخصص به، وأطلعه على أغراضه وأكثر من التردد إليه، وأجرى الماء إلى مسجده، وبنى له فيه حماماً وبستاناً وغير ذلك من المباني. فعظم قدر الإطفيحي به، وكثر غشيان الناس مسجده، وطار ذكره، وشاع خبره، وكثرت حاشيته، وصار المشار إليه بالديار المصرية حتى مات.

وفيها قام ببغداد تاجر يعرف بحامد الأصفهاني فتكلم بأن نسب الخلفاء الفاطميين صحيح، فقبض عليه واعتقل حتى مات.

وخرج الأمر بجمع الناس إلى بيت النوبة، ببغداد، فجمعوا في تاسع ربيع الآخر، وحضر بنو هاشم وغيرهم إلى الديوان، وقرئ توقيع أوله خطبة تشتمل على حمد الله تعالى والثناء عليه، وتذكر طاعة الأئمة وفضل العباس وما جاء فيه من الأخبار، ثم قال: « أما بعد، فإنه لم يخل وقت ولا زمان من مارق على الدين، وسارع في تفرق كلمة المسلمين ليلوالله المجاهدين فيهم والصابرين، ويصلى أكثر العاكفين نار جهنم التي أعدت للكافرين. وهذه الطائفة المارقة من الباطنية الملحدين، والكفرة المستسلمين، انتهكوا المحارم، واستحلوا الكبائر، وأراقوا الدماء، وكذبوا بالذكر، وأنكروا الآخرة، وجحدوا الحسنات والجزاء، وفصلوا أعضاء المسلمين، وسملوا: أعين الموحدين، وأنكروا الآخرة، وجحدوا، الدين وفقهاءه، وأعلنوا بالشرك ونداءه». ثم رماهم بالفسوق والإهمال

والانحلال، وقال: شاعرهم يقول:
حـل بـرقـادة^(٥) المسيح

حـل بها آدم وزنح

سنة تسع وثمانين وأربعمائة

فيها خرج خلف بن ملاعب من عند الأفضل لولاية فامية، فسار إليها وتسلمها.

وكان سبب ذلك أن أهلها كانوا إسماعيلية، فقدموا إلى القاهرة وسألوا أن يجهز إليهم من يلي أمرهم، فوقع الاختيار على خلف بن ملاعب، وكان قد ولي مدينة حمص وساءت سيرته في أهلها، فبعث إليه السلطان ملك شاه من العراق من قبض عليه وحمله إليه بأصفهان، فاعتقله بها إلى أن مات، فأطلق وسار إلى مصر فأقام بها حتى خرج إلى فامية

سنة تسعين وأربعمائة

فيها وقع بمصر غلاء ومجاعة.

في سادس عشر صفر قدم على الأفضل رسول فخر الدولة رضوان بن تتش صاحب حلب وأنطاكية وهم.... بن الحلال و^(٦) ابن البوين كاتب عز الدولة ابن منقذ^(٧)، صحبة رسول الأفضل الشريف شجاع الدولة ابن أبي سوية وقدم معهم شرف الدولة... الباهلي الشاعر، وكان قد قدم مصر ومدح أمير الجيوش بدر الجمالي، فأجيب بالشكر والثناء وخطب بها للمستعلي بالله في يوم الجمعة سابع عشر رمضان، وكان سبب هذا الفعل من رضوان أنه قصد أن يستعين بعساكر مصر على أخذ دمشق من أخيه دقاق. فاتفق أن الأمير سكيان بن أرتق أنكر على رضوان ذلك، فقطع خطبة المستعلي، وأعاد الخطبة لبني العباس، فكان

مدة الخطبة للمستعلي أربعة أشهر.

وفي ربيع الأول جهز الأفضل عسكريا عدة وافرة لأخذ صور فسار إليها وحاصرها حصارا شديدا حتى أخذت بالسيف، فدخلها العسكر وقتلوا منها بالسيف خلقا كثيرا، وقبض على واليها وحمل إلى الأفضل فقتله لأنه كان قد خرج عن الطاعة وعصى على الأفضل.

وفيها كان ابتداء خروج الإفرنج من بلاد القسطنطينية لأخذ بلاد الساحل من أيدي المسلمين، فوصلوا إلى مدينة أنطاكية ونازلوها حتى ملكوها، ومنها دبوا إلى بلاد الساحل.

وفيها تجمع الرعاع والعامه في يوم عاشوراء بمشهد السيدة نفيسة^(٨) وجهروا بسب الصحابة، وهدموا عدة قبور، فسير الأفضل إليهم ومنعهم من ذلك، وأدب ذخيرة الملك ابن علوان، والي القاهرة، جماعة وضرهم.

وفيها حرر الأفضل في المحرم عيار الدينار وزاد فيه.

[إعلم إن الفرنج من ولد ريغات بن كומר بن يافت بن نوح، فهم أخوة الصقالبة والحزر والترك، ويقال بل هم من ولد عطريا بن غومر وهو كومر بن يافت، ويسكنون شمالي البحر الرومي من خليج رومه إلى ما وراء غربا وشمالا، وكانوا أولا تحت أيدي اليونان والروم، ثم استقلوا بعدهم بملكهم، وافترقوا، فكان منهم القوط والجلالقة بالأندلس حتى أخذها منهم المسلمون، وكان منهم اللمانيون بجريرة انكلطرة بالبحر المحيط الغربي الشمالي، وما يقابله وما يجاذيه، وكان منهم افرنسة، وهم افرنجة فملكوا ما وراء خليج روما غربا إلى الثنايا التي تفضي إلى الأندلس في الجبل المحيط بها من شقيها، وتسمى هذه الثنايا البرت، وعظمت دولتهم بعد الروم في أثناء الاسلام، وعرفوا بالأفرنسيس، وتغلبوا على جزائر البحر الرومي في آخر المائة الخامسة، وكان ملكهم حينئذ

اسمه بردويل، فبعث رجار إلى صقلية وملكها من المسلمين سنة ثمانين وأربعمائة، ثم ساروا في البحر على قسطنطينية وعبروا من الخليج سنة تسعين وأربعمائة، حتى نزلوا عواصم الروم، وحاربوا قليج أرسلان بن سليمان بن قظلمش بن اسرائيل بن سلجوق، ملك قونية، فأخذوا منه أنطاكية، وهم خمسة ملوك: بردويل، وصنجيل، وكندفري، والقمص، وييمند وهو مقدمهم، فولوه أنطاكية، ثم ملكوه معرة النعمان، ونازلوا حصص، ثم عكا، ثم حصروا القدس حتى أخذت كما سيأتي إن شاء الله^(٩)

سنة احدى وتسعين وأربعمائة:

فيها خرج الأفضل في عساكر جمعة، ورحل من القاهرة في شعبان، وسار يريد أخذ بيت المقدس من الأمير سكيان وإيلغازي، ابني أرتق، وكانا به في كثير من أصحابها، فبعث إليهما يلمس منهما أن يسلماه البلد ولا يجوجه إلى الحرب، فأيا عليه، فنزل على البلد ونصب عليها من المجانيق نيفا وأربعين منجنيقا، وأقام عليها يحاصرها نيفا وأربعين يوما حتى هدم جانبها من السور، ولم يبق إلا أخذها، فسير إليه من بها ومكانه من البلد، فخلع على ولدي أرتق وأكرمهما، وأخلى عنهما، فمضيا بمن معها، وملك البلد في شهر رمضان لحمس بقين منه، وولى فيه من قبله، ثم رحل إلى عسقلان، وكان فيها مكان قد دفن فيه رأس الحسين بن علي ابن أبي طالب عليه السلام، فأخرجه وعطره وحمله في سبط إلى أجل دار بها، وعمر مشهدا مليح البناء، فلما تكامل حمل الرأس في صدره وسعى به ماشيا من الموضع الذي كان فيه إلى أن أحله في مقوره. ويقال إن أمير الجيوش هو الذي أنشأ المشهد على الرأس بثغر عسقلان، وأن ابنه الأفضل شاهنشاه كمله، ثم حمل هذا الرأس إلى القاهرة، فوصل إليها يوم الأحد ثامن جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة.

وفيهما حدثت بمصر ظلمة عظيمة عشت أبصار الناس حتى لم يبق أحد يعرف أين يتوجه، ثم هبت ريح سوداء شديدة، فظن الناس أن الساعة قد قامت، واستمرت الريح سبع ساعات وانجلت الظلمة قليلا قليلا وسكنت الريح، ولم يصل في ذلك اليوم أحد صلاة الظهر ولا العصر، ولا أذن في القاهرة ولا مصر.

سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة:

فيها سار الفرنج لأخذ سواحل البلاد الشامية من أيدي المسلمين، فملكوا مدينة أنطاكية وساروا إلى المعرة فملكوها، ثم رحلوا عنها إلى جبل لبنان فقتلوا من به، ووصلوا عرقة فحاصروها أربعة أشهر فلم يقدروا عليها، ونزلوا على حمص، فهادنهم جناح الدولة حسين، وخرجوا على طريق النواقر إلى عكا، ثم أخذوا الرملة في ربيع الآخر، وزحفوا منها إلى بيت المقدس فحاصروا المدينة، وبلغ ذلك الأفضل فخرج بعساكر كثيرة لمحاربتهم، فجد الفرنج، عندما بلغهم مسيره إليها، في حصار المدينة، وكان نزولهم عليها في شهر ربيع الآخر، حتى ملكوها يوم الجمعة الثاني والعشرين من شعبان بعد أربعين يوما.

وهدموا المشاهد وقبر الخليل عليه السلام، وقتلوا عامة من كان في البلد، وكان فيه من العباد والصلحاء والعلماء والقراء وغيرهم خلائق لا يقع عليهم حصر، فوضعوا السيف فيهم وأفنوهم عن آخرهم، ولم يفلت منهم إلا اليسير. وانحازت عدة من المسلمين إلى محراب داود عليه السلام فحاصروهم الفرنج نيفا وأربعين يوما حتى تسلموه بالأمان في يوم الجمعة ثاني عشره. وأحرقوا ما كان بيت المقدس من المصاحف والكتب، وأخذوا ما كان بالصخرة من قناديل الذهب والفضة والآلات، وكان مبلغا عظيما. ويقال إنه قتل في المسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفا، وأنهم لحقوا من فر من المسلمين مسيرة أسبوع يقتلون من أدركوه منهم.

ووصل الأفضل إلى عسقلان في الرابع عشر من شهر رمضان، فبعث إلى الفرنج فوبخهم على ما كان منهم، فردوا إليه الجواب، وركبوا في إثر الرسل فصدفوه على غرة وأوقعوا بعساكره وقتلوا منهم كثيرا. وانهمز منهم بمن خف معه فتحصن بعسقلان وتعلق أكثر أصحابه هنالك في شجر الجميز، فأضرموا فيها النار حتى احترقت بمن تعلق فيها، فهلك خلق كثير وحاز الفرنج من أموال المسلمين ما جل قدره، ولا يمكن لكثرتة حصره.

ونازلوا عسقلان، وحصروا الأفضل فيها حتى كادوا يأخذونه، إلا أن الله سبحانه أوقع فيهم الخلف فاضطروا إلى الرحيل عن عسقلان، فاغتنم الأفضل رحيلهم عنه فركب البحر وقد ساءت حاله، وذهبت أمواله، وقتلت رجاله، وسار إلى القاهرة، ولم يعد بعد هذه الحركة إلى الخروج بنفسه في حرب ألبته.

وكان ملك الفرنج بالقدس كندفري.

وفيها توفي أبو الحسن علي بن الحسن بن الحسين بن محمد الموصلبي الحنفي المحدث في ثامن عشر ذي الحجة.

سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة:

فيها (جفل) عالم لا يحصى عددهم من البلاد الشامية فرارا من الفرنج والغلاء.

وفيها عم الغلاء أكثر البلاد، ومات من أهل مصر خلق كثير

وفيها مات قاضي القضاة أبو الطاهر محمد بن رجاء، وتولى بعده أبو الفرج محمد بن جوهر بن ذكا النابلسي.

ومات علي بن محمد بن علي الصليحي، قتله سعد بن نجاح الأحول، وقتل أخاه عبدالله وجميع بني الصليحي بمكة من ذي القعدة.

وولي الحسن بن علي بن أحمد الكرخي الحكم شهرا واحدا وثلاثة أيام، وصرف وصدور من أجل أنه أخذ عصابة من القصر في أيام الشدة لها قيمة، فظهرت عليه.

سنة أربع وتسعين وأربعمائة:

في شعبان جهز الأفضل عسكريا كثيفا لغزو الفرنج، فساروا إلى عسقلان، ووصلوا إليها في أول رمضان، فأقاموا بها إلى ذي الحجة، فنهض إليهم من الفرنج ألف فارس وعشرة آلاف راجل، فخرج إليهم المسلمون وحاربوهم، فكانت بين الفريقين عدة وقائع آلت إلى كسر الميمنة والميسرة وثبات سعد الدولة الطواشي، مقدم العسكرة، في القلب، وقاتل قتالا شديدا، فراجع المسلمون عند ثبات المذكور وقاتلوا الفرنج حتى هزموهم إلى يافا، وقتلوا منهم عدة وأسروا كثيرا، وقتل كندفري ملك الفرنج بالقدس، فجاء أخوه بغدوين من القدس وملك بعده، وسار بالفرنج إلى أرسوف.

وفيها مات القمص رجار بن تنقرد، صاحب جزيرة صقلية، فقام من بعده ابنه رجار بن رجار.

وفيها نزل الفرنج على حيفا وقتلوا أهلها، وتسلموا أرسوف بالأمان، وملكوا قيسارية عنوة في آخر شهر رجب وقتلوا من بها، وملكوا مع ذلك يافا، مع ما بأيديهم من أعمال الأردن وفلسطين.

سنة خمس وتسعين وأربعمائة:

فيها مات الخليفة أبو القاسم أحمد المستعلي بالله بن المستنصر في ليلة السابع عشر من صفر، وعمره سبع وعشرون سنة وشهر واحد وتسعة وعشرون يوماً، ومدة خلافته سبع سنين وشهر واحد وعشرون يوماً.

نقش خاتمة «الإمام المستعلي بالله».

وفي أيامه اختلت دولتهم وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وانقسمت البلاد الشامية بين الأتراك الواصلين من العراق وبين الفرنج، فإنهم، خذلهم الله، دخلوا بلاد الشام، ونزلوا على أنطاكية في ذي القعدة سنة تسعين وأربعمائة وتسلموها في سادس عشر رجب سنة إحدى وتسعين، وأخذوا معرة النعمان في سنة اثنتين وتسعين، وأخذوا الرملة ثم بيت المقدس في شعبان، ثم استولوا على كثير من بلاد الساحل، فملكوا قيسارية في سنة أربع (وتسعين) بعدما ملكوا عدة بلاد

وفي أيامه فر أخوه نزار إلى الاسكندرية، وقتل في الحروب التي كانت بينه وبين الأفضل خلق كثير، وأخذ وقتل بعد ذلك.

وفي أيامه أيضاً افتقت الإسماعيلية فصاروا فرقتين: نزارية، تعتقد إمامة نزار وتطعن في إمامة المستعلي، وترى أن ولد نزار هم الأئمة من بعده يتوارثونها بالنص، والفرقة المستعلوية، ويرون صحة إمامة المستعلي ومن قام بعده من الخلفاء بمصر، وبسبب ذلك حدثت فتن، وقتل الأفضل فيما يقال وقتل الأمر، كما يأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ولم يكن للمستعلي سيرة فتذكر، فإن الأفضل كان يدبر أمر الدولة تدبير سلطنة وملك لا تدبير وزارة.

وخلف المستعلي من الأولاد ثلاثة، هم الأمير أبسو علي المنصور،
والأمير جعفر، والأمير عبد الصمد.

وكانت قضاة مصر في خلافته: أبو الحسن ابن الكحال، ثم عزل بابن
عبد الحاكم المليجي، ثم ولي أبو الطاهر محمد بن رجاء، ثم أبو الفرج
محمد بن جوهر بن ذكا، ومات المستعلي وهو قاض.

وقيل إن المستعلي مات مسموما، وقيل بل قتل سرا.

وكان [المستعلي بن] المستنصر^(١٠) قد عقد نكاحه على ست الملك ابنة
أمير الجيوش بدر، فمات قبل أن يني عليها، وكان أمير الجيوش قد
جهزها جهازا عظيما^(١١) وأكثر من شراء الجواهر العظيمة القدر لها، فلما
مات انتهب أولاده ذلك وتفرقوه^(١٢)

وفيها أخذ صنجيل، أحد ملوك الفرنج، طرابلس، فصار للفرنج
القدس وفلسطين إلا عسقلان، ولهم من بلاد الشام يافا، وأرسوف،
وقيسارية، وحيفا، وطبرية، والأردن، ولاذقية، وأنطاكية، ولهم من الجزيرة
الرها، وسروج، ثم ملكوا جبيل، ومدينة عكا، وأفامية، وسرمين من أعمال
حلب، وبيروت، وصيدا، وبانياس، وحصن الأتاب

الأمير بأحكام الله أبو علي المنصور بن المستعلي بالله

أبي القاسم أحمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد ضحى يوم الثلاثاء الثالث عشر من المحرم سنة تسعين
وأربعمائة، وبويع له بالخلافة في اليوم الذي مات فيه أبوه وهو طفل له
من العمر خمس سنين وشهر وأيام، في يوم الثلاثاء سابع عشر صفر سنة
خمس وتسعين. أحضره الأفضل وبايع له، ونصبه مكان أبيه، ونعته
بالأمير بأحكام الله.

وكتب ابن الصيرفي سجلا عظيما، أبدع فيه ما شاء، بانتقال الإمام المستعلي إلى رحمة الله وولاية ابنه الأمر، وقرىء على رؤوس الكافة من الأمراء والأجناد وغيرهم.

وأنشده ابن مؤمن الشاعر قصيدة طنانة يمدح الأمر. وركب الأفضل فرسا وجعل في السرج شيئا أركب الأمر عليه لينمو شخصه وصار ظهر الأمر في حجر الأفضل. (١٣)

سنة ست وتسعين وأربعمائة :

فيها ندب الأفضل مملوك أبيه سعد الدولة القواسمي على عسكر لقتال الفرنج، فلقبهم بغدوين على يينا، فكسرت عساكر الأفضل وتقنطر سعد الدولة فمات، وأخذ الفرنج خيمه فانهزم أصحابه. وبلغ (الأفضل) ذلك فجرد في أول شهر رمضان عسكرا قدم عليه ابنه شرف المعالي سماء الملك حسينا، وسير الأسطول في البحر، فاجتمعت العساكر بيازور، من بلاد الرملة، وخرج إليهم الفرنج، فكانت بينهما حروب هزمهم الله فيها بعد مقتلة عظيمة، ونزل شرف المعالي على قصر كان قد بناه الأفشين قريبا من الرملة فيه سبعمائة قومص من وجوه الفرنج، فقاتلوه خمسة عشر يوما ثم ملكهم وضرب رقاب أربعمائة، وبعث إلى القاهرة ثلاثمائة.

وكان أصحاب شرف المعالي قد رأى بعضهم أن يمضوا إلى يافا ويملكوها، ورأى بعضهم أن يسيروا إلى القدس، فبينما هم في ذلك وصل مركب من الفرنج لزيارة قمامة، فندبهم بغدوين للغزو معه، فساروا إلى عسقلان وقد نزلها شرف المعالي وامتنع بها، وكانت حصينة، فتركها الفرنج ومضوا إلى يافا، وعاد شرف المعالي إلى القاهرة بعدما كتب إلى شمس الملوك دقاق، صاحب دمشق، يستنجده لقتال الفرنج، فتقاعد عن المسير واعتذر.

فجرد الأفضل أربعة آلاف فارس وعليهم تاج العجم^(١٤)... بمن معه عسقلان، ونزل ابن قادوس على يافا، وبعث يستدعي تاج العجم ليتفقا على الحرب، فلم يجبه، وتنافرا، فلما بلغ ذلك الأفضل بعث يقبض على تاج العجم، وولى الملك رضوان تقدمه العسكر وسيره إلى عسقلان، فأقام عليها إلى آخر سنة سبع وتسعين حتى قدم شرف المعالي بعساكر مصر.

وفيها مات تنكري ملك الفرنج بالساحل، فقام بعده سرجار ابن أخيه.

سنة سبع وتسعين وأربعمائة:

فيها نازل بغدوين، ملك الفرنج وصاحب القدس، ثغر عكا وحاصر أهله، وألح عليهم حتى ملكه. وكان فيه من قبل الأفضل يومئذ زهر الدولة نبا الجيوشي، ففر إلى دمشق، وصار إلى ظهير الدين^(١٥) أتابك، فأكرمه وأحسن إليه، ثم جهز إلى الأفضل فأنكر عليه وهدده على تضييع الثغر، ولم تعد بعدها عكا للمسلمين.

سنة ثمان وتسعين وأربعمائة:

فيها جمع الأفضل جموعا كثيرة من العربان وأنفق فيهم أموالا عظيمة، وجهزهم صحبة العساكر مع ابنه شرف المعالي، وكتب لظهير الدين أتابك، صاحب دمشق، بمعاونته ومعاضدته على محاربة الفرنج، فاعتذر عن حضوره بما هو مشغول به من مضايقة بصرى، فإن أرتاش ابن تاج الدولة صاحب بصرى كاتب الفرنج وأغراهم بقتال المسلمين وأطعمهم في البلاد، فسار أتابك من دمشق وحاصر بصرى، وجهز عسكرا إلى

شرف المعالي تقوية له على الفرنج، وقدم عليه إصبهذ صباو بن
جهارتكين، وعدته ألف وثلثائة فارس من الأتراك، وعدة عسكر مصر
خمسة آلاف فارس.

وأتاهم بغدوين في ألف وثلثائة فارس وثمانية آلاف راجل.
فاجتمعت عساكر المسلمين بظاهر عسقلان، ودارت بينهم وبين الفرنج
حروب كان ابتداءؤها في الرابع عشر من ذي الحجة فيما بين عسقلان
ويافا، فانكسرت عساكر المسلمين واستشهد فوق الألف من المسلمين
منهم جمال الملك ربيع الإسلام والي عسقلان، وأخذ الفرنج رايته، وأسر
الفرنج زهر الدولة نبا الجيوشي، وقتل ألف ومائتان من الفرنج، ورجعوا
وقد كانت الكرة لهم على المسلمين، وعاد عسكر دمشق إلى أتابك وهو
على بصرى.

وفيها مات كثر الدولة ^(١٦) محمد في ثامن شعبان، وقام من بعده أخوه
فخر العرب

سنة تسع وتسعين وأربعمائة:

في سادس عشر رجب قتل خلف بن ملاعب صاحب فامية، قتله
طائفة من الباطنية. وملك الفرنج عكا عنوة في سلخ شعبان من زهر
الدولة نبا الجيوشي، فسار إلى دمشق ثم قدم مصر.

سنة خمسمائة

أهلت والخليفة بمصر الأمر بأحكام الله، ومدبر سلطنة مصر الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وليس للأمر معه حل ولا ربط، وليس له من الأمر سوى اسم الخلافة، والذي في مملكته: ديار مصر، وغزة، وعسقلان، وصور، وطرابلس لأغير .

وفيهما بنى الأفضل دار الملك بشاطئ النيل من مدينة مصر.

وفيهما سار متولي صور فأوقع بالفرنج على تبين، فقتل وأسر جماعة، وعاد إلى صور، فسار بغدوين إليه من طبرية، فركب طغتكين من دمشق، وأخذ للفرنج حصنا بالقرب من طبرية وأسر من كان فيه منهم.

وفيهما ملك قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان ييغو بن سلجوق، صاحب قونية، الموصل في شهر رجب، فقتل في ذي القعدة منها، وقام بعده بقونية وأقصر ابنه مسعود

سنة إحدى وخمسمائة:

ففيها نزل بغدوين على ثغر صور وعمر حصنا مقابل حصن صور على تل المعشوقة، وكان على ولاية صور من قبل الأفضل سعد الملك كمشتكين، أحد المماليك الأفضلية، فصانع بغدوين على سبعة آلاف دينار وخرج من صور.

وفيهما أحضر إلى القاهرة أهل فخر الدولة أبي علي عمار بن محمد بن ابن عمار من طرابلس، وكثير من أمواله وذخائره، وذلك أن فخر الدولة حاصره الفرنج وأطالوا منازلته حتى ضاق ذرعه وعجز عن مقاومتهم، فخرج من طرابلس في سنة خمسمائة ومعه هدايا جليلة، فلقي ظهير

بأخويه: أبي تراب حيدرة، وأبي الفضل جعفر، فأطلق لهما الأفضل ما وسع به عليهما، ونعت الأفضل أبا محمد ابن فاتك بالقائد

فيها فتح ديوان سمي بديوان التحقيق، تولاه أبو البركات يوحنا بن أبي الليث النصراني، وكان يتولى ديوان المجلس رجل يعرف بابن الأسقف، وكان قد كبر وضعف فتحدث ابن أبي الليث مع القائد أبي عبد الله في الدواوين والأموال والمصالح، وفاوض في ذلك الأفضل، واتفق موت ابن الأسقف، فتسلم ابن أبي الليث الدواوين واستمر فيها حتى قتل في سنة ثمان عشرة وخمسة مائة.

وفيها تحدث ابن الليث في نقل السنة الشمسية إلى العربية، وكان قد حصل بينهما تفاوت أربع سنين، فأجاب الأفضل إليه، وخرج أمره إلى الشيخ أبي القاسم ابن الصيرفي بإنشاء سجل به، ثم رأى اختلال أحوال الرجال العسكرية والمقطعين، وتضررهم من حسة ارتفاع إقطاعاتهم وسوء حالهم، وصار في كل ناحية للديوان جملة تجبى بالعسف وتتردد الرسل من الديوان بسببها، فحملت الإقطاعات كلها على أملاك البلاد، وأمر ضعفاء الجند بالزيادة في الإقطاعات التي للأقوياء، فتزايدوا إلى أن انتهت الزيادة، فكتبت السجلات بأنها باقية في أيديهم مدة ثلاثين سنة ما يقبل منهم فيها زائد، وأمر الأقوياء أن يبذلوا في الإقطاعات التي كانت بيد الأجناد ما تحتمله كل ناحية، فتزايدوا فيها حتى بلغت إلى الحد الذي رغب كل منهم فيه، فكتبت لهم السجلات على الحكم المتقدم، فشملت المصلحة الفريقين وطابت نفوسهم، وحصل للديوان بلاد مقورة^(١٦) بها كان مفرقا في الإقطاعات بما مبلغه خمسون ألف دينار.

وفيها فرغ بناء دار الملك، وكان الأفضل يسكن القاهرة فتحول إلى مصر، وسكن دار الملك على النيل واستقر بها، فقال الشعراء فيها عدة قصائد.

وفيها بانة كراهة الأفضل لأولاده واحتجب عنهم أكثر الأوقات، فانقطعوا عنه واستقروا بالقاهرة في دار القباقب التي كانت سكن أبيهم الأفضل، وهي الدار التي عرفت بدار الوزارة، ولم يبق من أولاده من يتردد إليه سوى سماء الملك فإنه كان يؤثره ويميل إليه.

وأفرد الأفضل للقائد أبي عبد الله بن فاتك الموضع المعروف باللؤلؤة
(١٧).

وفيها وردت الأخبار بأن متملك النوبة، قد تجهز برا وبحرا وعول على قصد البلاد القبليّة، فسير الأفضل عسكريا إلى قوص، وتقدم إلى والي قوص بأن يسير بنفسه إلى أطراف بلاد النوبة، فورد الخبر بوثوب أخي الملك عليه وقتله. واشتدت الفتنة بينهم حتى باد أهل بيت المملكة وأجلس صبي في الملك، فأرسلت أمه تستجير بعفو الأفضل وتسأله ألا يسير إليهم من يغزوهم، فكتب لوالي الصعيد الأعلى بأن يسير عسكريا إلى أطراف بلاد النوبة، ويبعث إليهم رسولا يجدد عليهم القطيعة الجاري بها العادة، وهي كل سنة ثلاثمائة وستون رأسا رقيقا بعد أن يستخلص منهم ما يجب عليهم في السنين المتقدمة.

فلما رحلت العساكر نحوهم دخلوا تحت الطاعة، وكتبوا المواصفات وسألوا في الإعفاء عما يخص السنين، وحملوا ما تيسر لهم، وعادت العساكر كاسبة.

وفيها كثر خوض الناس في القرآن هل هو محدث أو قديم، وتفاقم الأمر فعرف الأفضل، فأمر بإنشاء سجل بالتحذير من الخوض في ذلك، وركب بنفسه إلى الجامع بمصر، وجلس في المحراب بجوار المنبر، وصعد الخطيب أربع درجات منه وقرأ السجل على الناس.

وفيها مات مسعود بن قليح أرسلان بن سليمان صاحب قونية

وأقصر، فقام بعده ابنه قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان، وقسم أعماله بين أولاده (١٨).

سنة اثنتين وخمسة: سنة

في رمضان ورد الخبر بأن أهل مدينة طرابلس الشام نادوا بشعار الدولة عند خروج فخر الملك أبي علي عمار بن محمد بن الحسين بن قندس بن عبد الله بن ادريس بن أبي يوسف الطائي منها، وقصده بغداد لطلب النجدة، لما اشتد حصار الفرنج لها، وغلا السعر بها.

وكان سماء الملك حسين بن الأفضل عندما كان بالشام في السنة التي كسر الفرنج فيها قد سام ابن عمار تسليمها إليه، فامتنع وغلق الباب في وجهه، وأقام سماء الملك عليها مدة بالعساكر إلى أن نازها الفرنج ورحلوه عنها إلى عسقلان، فلما سمع الأفضل أن أهل الثغر نادوا بشعاره سير إليهم أميرين ومقدم الأسطول، وأمره بأخذ المراكب التي على دمياط وعسقلان وصور معه إلى الثغر المذكور نصرة للمسلمين

فلما وصل إليه وجد الفرنج قد ملكوا الحوش وأمهلوا المسلمين، فأنفذ من كان بها وحمل في المراكب من أراد الخروج منهم بأهاليهم وأموالهم، وفيهم صالح بن علاق الطائي بعد هروبه من الأفضل، وحمل من دار ابن عمار ذخائره ومضاغعه، وكان بقيمة كبيرة (١٩).

وحمل أخا ابن عمار المعروف بفخر الدولة وأهله إلى مصر، فأكرمهم الأفضل، واعتقل صالح بن علاق بخزانة البنود.

وفي العشرين من شوال كانت ريح سوداء من صلاة العصر إلى المغرب.

وفيهما جدد حفر خليج القاهرة، فإن المراكب كانت لاتدخل فيه إلا بمشقة، وجعل حفره بأبقار البساتين التي عليه، فيحفر بأبقار كل بستان ما يجاذبه، فإن انتهى أمر البساتين عمل في البلاد كذلك، وأقيم له وإل مفرد بجامكية، ومنع الناس أن يطرحوا فيه شيئاً.

ولما تكاثرت الأموال عند ابن أبي الليث صاحب الديوان، رجية أن يتنجح على الأفضل بنهضته، وكان سبعمائة ألف دينار، خارجاً عما أنفق في الرجال، فجعل في صناديق بمجلس الجلوس، فلما شاهد الأفضل المال قال: يا شيخ نفرحني بالمال وتريه أمير الجيوش، إن بلغني بئراً معطلة، أو أرضاً بائرة أو بلداً خراباً، لأضربن رقبتك، فقال: وحق نعمتك لقد حاشى الله أيامك أن يكون فيها بلد خراب أو بئر معطلة، فتوسط القائد له بخلع، فقال: لا والله حتى أكشف عما ذكر.

وفيهما وصل بغدوين إلى صيدا ونصب عليها البرج الخشب، فوصل الأسطول من مصر للدفع عنهم، وقاتلوا الفرنج وقهروا على مراكب الجنوبية، فبلغهم أن عسكر دمشق خارج في نجدة صيدا، فرحل الأسطول عائداً إلى مصر.

وفي شعبان منها نزل الفرنج على طرابلس وقاتلوا أهلها من أول شعبان إلى حادى عشر ذي الحجة، ومقدمهم ريمند بن صنجيل^(٢٠)، واسندوا أبراجهم الى السور، فضعفت نفوس المسلمين لتأخر أسطول مصر عنهم، فكان قد سار من مصر إليها بالميرة وأكنجدة فردته الريح لأمر قدره الله، فشد الفرنج في قتالهم وهجموا من الأبراج، فملكوها بالسيف في يوم الاثنين الحادي والعشرين من ذي الحجة، ونهبوا ما فيها، وأسروا رجالها، وسبوا نساءها وأطفالها، فحازوا من الأمتعة والذخائر ودفاتر دار العلم وما كان في خزائن أربابها

مالا يجد عدده ولا يحصى فيذكر، وسلم الوالي لها في جماعة من جندها كانوا قد طلبوا الأمان قبل ذلك، وعوقب أهلها واستصفت أموالهم واستثيرت ذخائرهم، ونزل بهم أشد العذاب.

وتقرر بين الفرنج والجنويين الثلث من البلد وما نهب منه للجنوبيين، والثلاثان لريمند بن صنجيل، وأفردوا للملك بغدوين ما رضي به.

ثم وصل اسطول مصر ولم يكن خرج فيما تقدم مثله كثرة رجال ومراكب وعدد وغلال للحماية طرابلس فأرسي على صور في اليوم الثامن من أخذ طرابلس، وقد فات الأمر فيها، فأقام مدة، وفرقت الغلة في جهاتها، وتمسك أهل صور وصيدا، وبيروت به لضعفهم عن مقاومة الفرنج، فلم تمكنه الإقامة، وعاد إلى مصر.

سنة ثلاث وخمسة:

فيها سار الفرنج نحو بيروت، وعملوا عليها برجاً من الخشب، وزحفوا، فكسره أهل بيروت. وقدم الخبر بذلك على الأفضل، فجهز تسعة عشر مركباً حربية، فوصلت سالمة إلى بيروت، وقويت على مراكب الفرنج، وغنمت، ودخلت إلى بيروت بالميرة والنجدة، فقوي أهلها بذلك، وبلغ بغدوين الخبر، فاستنجد بالجنوية، فأتاه (٢١) منهم أربعون مركباً مشحونة بالمقاتلة، فزحف على بيروت في البر والبحر، ونصب عليها برجين، وقاتل أهلها في يوم الجمعة الحادي والعشرين من شوال، فعظمت الحرب، وقتل مقدم الأسطول وكثير من المسلمين، ولم ير للفرنج فيما تقدم أشد من حرب هذا اليوم، فانخذل المسلمون في البلد، وهجم الفرنج من آخر النهار فملكوه بالسيف قهراً، وخرج متولي بيروت في أصحابه وحمل في الفرنج، فقتل من كان معه، وغنم الفرنج ما معهم من المال ونهبوا البلد، وسبوا من فيه وأسروا، واستصفوا الأموال والذخائر،

فوصل عقب ذلك من مصر نجدة فيها ثلاثمائة فارس إلى الأردن تريد بيروت، فخرج عليها طائفة من الفرنج، فانهزموا إلى الجبال، فهلك منهم جماعة.

وفيها سار الأسطول من مصر إلى صور ليقيم بها، فاتفق وصول ابن كند ملك الفرنج في عدة مراكب لزيارة القدس والجهاد في المسلمين، فزار القدس، وسار هو وبغدوين إلى صيدا، فإزلاها بجمعها وعملا عليها برجاً من خشب، وزحفا عليها، فلم يتمكن الأسطول من الوصول إليها (٢٢)

سنة أربع وخمسةائة :

في ثالث ربيع الآخر اشتد الحصار على أهل صيدا ويثسوا من النجدة، فبعثوا قاضي البلد في عدة من شيوخها إلى بغدوين يطلبون الأمان، فأجابهم وأمنهم على أنفسهم وأموالهم، وإطلاق من أراد الخروج منها إلى دمشق، وحلف على ذلك، فخرج الوالي والزمام وجميع الأجناد والعسكرية وخلق كثير من الناس، وتوجهوا إلى دمشق، لعشر بقين من جمادى الآخرة. وكانت مدة الحصار سبعة وأربعين يوماً.

وفيها خرج جماعة من التجار والمسافرين من تينيس ودمياط ومصر وأقلعوا في البحر، فأخذهم الفرنج وغنموا منهم ما يزيد على مائة ألف دينار، وعاقبوهم حتى اشتروا أنفسهم بما بقي لهم من الذخائر في دمشق وغيرها.

وفيها أغار بغدوين بعد عوده من صيدا على عسقلان، فراسله أميرها شمس الخلافة أسد حتى استقر الحال على مال يحمله إليه ويرحل عنه،

وقرر على أهل صور سبعة آلاف دينار تحمل إليه في مدة سنة وثلاثة أشهر، فقدم الخبر بذلك في شوال على الأفضل، فأنكر ذلك وكتبه عن كل أحد، وجهاز عسكريا كثيفا إلى عسقلان، وقدم إليه عز الملك الأعز ليكون مكان شمس الخلافة، وندب معه مؤيد الملك رزيق، وأظهر أن هذا العسكر سار بدلا. فسار إلى قريب عسقلان، وبلغ ذلك شمس الخلافة فأظهر الخلاف على الأفضل وكتب إلى بغدوين يطلب منه أن يمدد بالرجال ويعده بتسليم عسقلان وأن يعرضه عنها.

فبلغ ذلك الأفضل. فكتب إليه يطيب قلبه ويغالطه، وأقطع عسقلان، وأقر عليه إقطاعه بمصر، وأزال الإعتراض عما له بمصر من خيل وتجارة وأثاث، فخاف شمس الخلافة على نفسه ولم يطمئن إلى أهل البلد، واستدعى جماعة من الأرمن وأقرهم عنده.

وفي يوم الأحد العشرين من شوال حدثت ريح حمراء بالقاهرة.

وفيها أمر أمير المؤمنين الأمر بأحكام الله أن ينعت جلسه أبو الفتح عبد الجبار بن اسماعيل، المعروف بابن عبد القوي بعماد الدولة زيادة على إخوته.

وفيها هبت بمصر وأعمالها في هذه الأيام ريح سوداء مظلمة، وطلع سحب أسود أظلمت منه الدنيا حتى لم يبصر أحد يده، وسفت رمادا حتى ظن الناس أنها القيامة، ويئسوا من الحياة وأيقنوا بالبوار لهول ما عاينوه، ولم يزل ذلك من وقت العصر إلى غروب الشمس. ثم انجلى ذلك السواد وعاد إلى الصفرة والريح بحالها، ثم انجلت الصفرة، وظهرت الكواكب وقد خرج الناس من الأسواق والدور إلى الصحراء، ثم ركبت الريح وأقلع السحاب، فعاد الناس إلى منازلهم.

سنة خمس وخمسة:

في يوم الجمعة ثامن عشر ربيع الآخر نزل بغدوين على صور وبها عز الملك أنوشتكين الأفضلي، وبني عليها أبرجة خشب، طول البرج سبعون ذراعاً، يسع كل برج ألف رجل، وهو موضوع على شيء يسمى اسقلوس وهو فخدان ملقيان على الأرض، وفي كل برج من أسفله عشرون فرنجياً يصيح أحدهم بالفرنجية: «صند ماريا»، فيصيح الباقيون كذلك، ويدفعونه بأجمعهم، فيسبح على ألواح عظيمة تجعل بين يديه، وكانت ستائر كل برج ومناجيقه كأنها بلد يزحف.

فخرج من أهل صور ألف رجل وحملوا على البرج وطرحوا فيه النار، فعلق بالخشب، فلم يتمكن الفرنج من إطفائه وهربوا منه، واحترق، فتناول المسلمون بالكلايب ما قدروا عليه من سلاحهم، فوصل إليهم ثلاثمائة درع، وكان على هذا البرج كبشا من حديد زنة رأسه مائة وخمسون رطلاً، فظفر به المسلمون، وكانت الريح على المسلمين ثم صارت معهم، وملاًوا جرارا بالعذرة ورموها على الفرنج، فصاحوا وذلوا ورحلوا، فعاثوا، ثم عادوا وقد قطعوا النخل أنابيب ورموا بها في الخندق..

وسار طغتكين من دمشق لإعانة أهل صور، فنزل على يوم منهم بحولة بانياس، ونفذ إليهم مائتي غلام تركي عليهم جليل من الأتراك، فقاتل الفرنج وقتل منهم ألفاً وخمسة، وأكثر النكاية فيهم، وأغار طغتكين على بلاد الفرنج، فأخذ لهم موضعاً، فرجعوا عن صور بغير شيء. وخرج أهل صور إلى أصحاب طغتكين، فخلعوا عليهم وأعادوهم إليه في أحسن زي، وأخذ أهل صور في رم ماشعته الفرنج في البلد.

وفيهما حدث بمصر وباء مفرط، هلك به تقديريستين ألف نفس.

سنة ست وخمسة:

فيها حفر البحر المعروف ببحر أبي المنجا، فابتدىء في حفره في يوم الثلاثاء السادس من شعبان، واقام الحفر فيه سنتين، وكان أبو المنجا يهودياً وكان يشارف الاعمال الشرقية، فلما عرض على الأفضل ما انفق فيه استعظمه وقال: غرنا هذا المال جميعه والاسم لأبي المنجا. فغير اسمه ودعي بالبحر الافضلي، فلم يتم ذلك ولا عرف إلا بأبي المنجا (٢٣).

وفيها أعلن شمس الخلافة أسد، والي عسقلان، بالخلاف، فعمد الى صاحب الترتيب والقاضي فأخرجها على أنه يرسلها الى الباب في خدمة عرضت له، وإلى العسكر الذي كان يخاف شوكته، فأوهمهم انه يسيرهم إلى بلاد العدو، فلما حصلوا خارج الثغر امرهم بالمسير الى باب سلطانهم، وكان قد سير قبل ذلك العسكر من الباب على جهة البدل. فلما علم أسد المذكور بوصولهم الى مدينة الفرما أنفذ إليهم يخيفهم ويشعرهم أن العدو قد تعدهم فامتنعوا من التوجه الى عسقلان.

فلما بلغ الأفضل ذلك عزم على أن يسير بنفسه اليه، ثم رأى ان اعمال الحيلة أنجع، فخادعه وأنفذ الكتب إليه ويصوب رأيه فيما فعله في صاحب الترتيب والبدل، ولم يغير مكاتبته عن حالها، ولا تعرض لاقطاعاته ورسومه واصحابه، وسير في الباطن من يستفسد الكنانية والرجال المركزة ويبذل لهم الأموال في أخذه، ولم يزل يدبر عليه حتى اقتنصت المنية مهجته، وذلك أن أهل بيروت أنكروا أمره، فوثب عليه طائفة وهو راكب، فجرحوه، وانهمزم الى داره فتبعوه واجهزوا عليه، ونهبوا داره وماله، وتخطفوا بعض دور الشهود والعامه، فبادر صاحب السيارة الى البلد وملكه، وبعث برأس شمس الخلافة الى الأفضل، فسر بذلك وأحسن الى القادمين به.

وكان قدوم الرأس في يوم الأربعاء رابع المحرم، صحبة ثلاثة من الكنانية، فخلع عليهم، وظيف بالرأس، وزينت البلد سبعة أيام.

وفيه خلع على ولده مختار ولقب شمس الخلافة، وأنعم عليه بجميع مال أبيه، وسير بدله مؤيد الملك خطلخ، المعروف برزيق، واليا على الثغر.

وفيهما وصل يانس الناسخ من الشام، فاستخدم في خزانة الكتب الأفضلية بعشرة دنانير في الشهر، وثلاث رزم كسوة في السنة، والهبات والرسوم.

وفيهما كتب إلى عسقلان بمطالبة من نهب دار شمس الخلافة وماله بها أخذه، فقبض على جماعة وحملوا إلى مصر فاعتقلوا بها

وفيهما تسلم نواب طغتكين صور من عز الملك أنوشتكين الأفضلي خوفا من بغدوين أن يأخذها، وقام بأمرها مسعود، فاستقرت بيد الأتراك وأقروا بها الدعوة المصرية والسكة على حالها، وكتب طغتكين إلى الأفضل بأن بغدوين قد جمع لينزل على صور، وأن أهلها استنجدوني، فبادرت لحمايتها، ومتى وصل من مصر أحد سلمتها إليه. فكتب يشكره على ما فعل. وتقدم بتجهيز الأسطول إلى صور بالغلة معونة لها.

سنة سبع وخمسةائة

في أولها خرج الأسطول من مصر بالغلات والرجال إلى صور، وعليه شرف الدولة بدر (٢٤) بن أبي الطيب الدمشقي متولي طرابلس عند أخذ الفرنج لها، فوصل إلى صور سالما، ورخصت بها الأسعار، واستقام أمرها، وأنفذ معه بخلع جلييلة إلى ظهير الدين طغتكين وولده تاج الملوك وخواصه، ولمسعود متولي صور، ثم أقلع في آخر شهر ربيع الأول. فبعث بغدوين يطلب المهادنة من مسعود، فأجابه، وانعقد الأمر بينهما.

سنة تسع وخمسةائة:

في ذي القعدة قفز على الأفضل عند باب الزهومة (٢٥) من دكان صيرفي يعرف بالفار وسلم، فأخرجت الصدقات بسبب سلامته، وقتل الصيرفي وصلب على دكانه.

وورد الخبر بأن بغدوين ملك الفرنج وصل الفرما، فسير الراجل من العطوفية، وسير إلى والي الشرقية بأن يسير المركزية والمقطعين إليها، ويتقدم إلى العربان بأسرهم أن يكونوا في الطوالع ويطاردوا الفرنج ويشارفوهم بالليل قبل وصول العساكر، وأن يسير بنفسه، فاعتمد ذلك، ثم أمر بإخراج الخيام وتجهيز الأصحاب والحواشي، فوصلت العربان والعساكر فطاردوا الفرنج، فخاف بغدوين من تلاحق العساكر، فنهب الفرما وأخرجها وألقى فيها النيران، وهدم المساجد، وعزم على الرجوع، فأدركته المنية ومات، فأخفى أصحابه موته، وساروا وقد شقوا بطنه وحشوه ملحاً، وشتت العساكر الإسلامية الغارات على بلاد العدو، وخيموا على ظاهر عسقلان ثم عادوا.

وكانت الكتب قد نفذت من الأفضل إلى الأمير ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، يعته ويقول له: « لا في حق الإسلام ولا في حق الدولة التي ترغب في خدمتها والانحياز إليها تتوجه الفرنج بجملتها إلى الديار المصرية ولا يتبين لك فيها أثر ولا تتبعهم، ولو كان وراءهم مثل ما كان أمامهم ما عاد منهم أحد ». فلما وصل إليه الكتاب سار بعسكره إلى عسقلان، فتلقاها المقدمون، ونزل أعظم منزل، وحملت إليه الضيافات. وحمل إليه من مصر الخيام وعدة وافرة من الخيل والكسوات والبنود والأعلام، وسيف ذهب، ومنطقة ذهب، وطوق ذهب، وبدنة طميم، وخيمة كبيرة معلمة، ومرتبة ملوكية، وفرشها، وجميع الآتيا، وسائر ما تحتاج إليه من آلات الفضة، وجهاز لشمس الخواص، وهو

مقدم كبير كان معه على عدة كثيرة من العسكر: خلعه مذهبه، ومنطقة ذهب، وسيف ذهب، وجهاز برسم المتميزين من الواصلين: خلع مذهبة وحريرية، وسيوف مغموسة بالذهب، فتواصلت الغارات على بلاد العدو، وقتل منهم وأسر عدد كبير.

فلما دخل الشتاء وتفرق العسكر والعربان، استأذن ظهير الدين على الإنصراف، فأذن له، وسيرت إليه وإلى من معه الخلع ثانيا، فحصل لشمس الخواص خاصة في هذه السفرة ما مقداره عشرة آلاف دينار، وتسلم الأمير ظهير الدين الخيمة الكبيرة بفرشها وجميع آلتها، وكان مقدار ما حصل له ولأصحابه ثلاثين ألف دينار، وذكر أن المنفق في هذه الحركة على ركاب بغدوين مائة ألف دينار.

ورعشت يد الأفضل، وصعب عليه إمساك القلم والعلامة على الكتب، فأقر أخاه أبا محمد جعفر المظفر في العلامة، وجعل له خمسمائة دينار في الشهر مضافا إلى رسمه، فعلم عنه.

واستهل شهر رمضان، فجرى الأمر في نيابة الأجل سماء الملك، ولد الأفضل، عنه في جلوسه بمحل الشباك، وقرر له على هذه النيابة في هذا الشهر خمسمائة دينار، وبدلة مذهبة، ورزمة كسوة فيها شقق حرير وغيرها، ولم يزل هذا الرسم مستقرا إلى أن أخذه عباس بن تميم في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة عند توليته حجة بابه. والبدلة وحدها تساوي خمسمائة دينار.

وفيها استخدم ذخيرة الملك جعفر في ولاية القاهرة والحسبة، فظلم وعسف، وبنى مسجدا عرف بمسجد لا بالله (٢٦).

سنة عشر وخمسمائة:

سنة احدى عشرة وخمسةائة:

في ذي الحجة خرج أمر الأمر بأحكام الله بنفي بني عبد القوي،
فنفوا إلى الأندلس بأهاليهم.

وفيها وصل بغدوين إلى الفرما وأحرق جامعها وأبواب المدينة
ومساجدها، وقتل بها رجلا مقعدا وابنة له ذبحها على صدره، ورحل
وهو مثخن مرضا، فمات قبل العريش، فشق بطنه ورمي ما فيه هناك،
فهو يرجم إلى اليوم، ويعرف مكانه بسبخة بردويل ودفنت رمته بقمامة
من القدس.

وقام من بعده بملك القدس القمص صاحب الرها، بعهدة إليه.

ونزل الفرنج حوران، وملكوا من أعمال حلب بزاعة وخرتبرت،
وملكوا مدينة صور.

وفيها خرج محمد بن تومرت من مصر في زي الفقهاء ومضى إلى بجاية

سنة اثنتي عشرة وخمسةائة:

فيها مات الأمير نور الدولة أبو شجاع فاتك، والد القائد أبي عبد
الله بن فاتك، فأخرج له الأفضل من ثيابه بذلة حريرية وقارورة كافور
وشققا مزيدي ديبقي، ونصافي، وطيبا وبخورا وشمعا، وحمل له من
القصر أضعاف ذلك، وخرج الأفضل والأمراء، وجمع حاشية القصر، إلى
الإيوان، فخرج الخليفة وصلى عليه، ثم أخرج فدفن. وتردد الناس إلى
التربة، وفرقت الصدقات إلى تمام الشهر.

وكان بيد نور الدين: زمر الضاحكية، والفراشين، وصبيان الركاب،

والسلاح الخاص بجار ثقيل، ورسوم كثيرة، وهؤلاء الضاحكية (كانوا) يعرفون بهذه الرسوم قديما عند وصولهم مع المعز إلى مصر، وهم يلبسون المناديل ويرخون العذب، ويلبسون الثياب بالأكمام الواسعة، وفي أرجلهم الصاجات، وفي الأعياد يشدون أوساطهم بالعراضي الديبقي، ولا يتقدمهم أحد إلى الخليفة على ما جرت به عادتهم في المغرب .

وفيها قفز على الأفضل ثانيا، وخرج عليه ثلاثة نفر بالسكاكين، فقتلوا، وعاد سالما، فاتهم أولاده، وصرح بالقول فيهم، وأخذ دوابهم، وأبعد حواشيهم، ومنعهم من التصرف، وبالغ في الاحتراز والتحفظ .

وفيها وردت التجار من عيذاب ذاكرين أنه خرج عليهم في مراكب شنها قاسم بن أبي هاشم، صاحب مكة، فقطعت عليهم الطريق وأخذ جميع ما كان معهم، فغضب الأفضل وقال: صاحب مكة يأخذ تجارا من بلادي، أنا أسير إليه بنفسي بأسطول أوله عيذاب وآخره جدة، ثم تقرر الحال على مكاتبة الأشراف بمكة وإعلامهم ما فعله أمير مكة، وأقسم فيه أنه لا يصل إلى مكة من أعمال الدولة تاجر ولا حاج إلى أن يقوم بجميع ما أخذه من أموال التجار، وكتب إلى والي قوص بأن يسير بنفسه أو من يقوم مقامه، إلى عيذاب، ومهما وصل من جدة من الجلاب لا يمكن أحدا من الركوب فيها، وأن يتشوف ما يدخل عيذاب من الشواني والحراريق، فمهما كان يحتاج إلى إصلاح ومرمة ينجز الأمر فيه، ويشعر أهل البلاد بوصول الرجال والأموال لغزو البلاد الحجازية، وتقدم إلى المستخدمين بصناعة مصر بتقديم خمسة حراريق وتكميلها ليسيروا إلى الحجاز

فلما وردت المكاتبة على الأشراف بمكة ولم يصل إليها أخذ اشتد الأمر

عندهم وتحرك السعر، فبعثوا رسولا من أميرهم، فلما وصل ساحل مصر لم يرد له ولا أجري عليه ضيافة وقيل له: ما يقرأ لك الكتاب ولا يسمع منك خطاب دون إعادة المأخوذ من التجار إليهم، وشاهد مع ذلك الجد والاهتمام بأمر الأساطيل وتجهيز العساكر إلى صاحبه، فالتزم بإحضار جميع أموال التجار، وسأل التوقف قبل الإسراع بما عول عليه من قصد صاحبه، وأجل لعوده أجلاً قريباً، فأجيب إلى ذلك، وسار فلم ينقض الأجل حتى عاد وصحبته جميع ما أخذ من التجار من البضائع والأموال، فحملت إلى الجامع العتيق بمصر بمحضر من الرعايا، وهم يعلنون بالشكر والدعاء، واحتاط متولي الحكم عليه إلى أن تحضر جماعة التجار، ويجري الأمر على ما توجبه الشريعة. وخلع على الرسول وأحسن إليه ووصل.

ومرض الأفضل بحمى حادة ثم عوفي، فدفع للطبيب ثلاثمائة دينار (٢٧).

سنة خمس عشرة وخمسة:

فيها قتل الأفضل بن أمير الجيوش يوم الأحد سلخ شهر رمضان وعمره سبع وخمسون سنة، لأن مولده بعكا سنة ثمان وخمسين وأربعمائة، وكان سبب ذلك أنه لما كان ليلة عيد الفطر جهز ما جرت العادة بتجهيزه من الدواب والآلات لركوب الخليفة، وجلس بين يديه إلى أن عرضت الطبول على العادة كل سنة، والدواب والسلاح، ثم عاد وأدى ما يجب من سلام الخليفة فتقدم إلى القائد أبي عبدالله بن فاتك بأن يأمر صاحب الباب أن يصف العساكر إلى صوب باب الخوخة (٢٨) وركب الأفضل من مكانه والناس على طبقاتهم، وخرج من باب الخوخة قاصداً دار الذهب (٢٩)، فلما حصل بها وقع التعجب من الناس في نزوله ليلة الموسم، ولم يعلم أحداً ما قصد، وكان قصده أن يكمل تعليق المجلس

الذي يجلس فيه، فصلى بدار الذهب الظهر، فلما قرب العصر ركب منها وقد انصرف أكثر المستخدمين ظنا منهم أنه يبيت فيها، فسار إلى الزهري فإذا الأمراء والأجناد والمستخدمون والرهجية قد اتجهوا لخدمته، وكان قد ضجر وتغير خلقه ولاسيما في الصيام. فلما رأى اجتماع الناس وكثرتهم أبعدهم، فتقدموا ووقفوا عند باب الساحل، فأنفذ أيضا يخرج من أبعدهم، وبقي في عدة يسيرة، وأبعد صبيان السلاح من ورائه، فوثب عليه من دكان دقاق بالملاحين أربعة نفر متتابعين كلما اشتغل من حوله بواحد خرج غيره، فرمى من الفرس إلى الأرض، وضربوه ثمان ضربات. وكان القائد^(٣٠) بعيدا منه لأخذ رفاع الناس، وسماع تظلمهم، وتفريق الصدقات على الفقراء بالطريق، فلما سمع الضوضاء أسرع إليه ورمى نفسه إلى الأرض عليه، فوجده قد قضى نحبه، وحمل على أيدي مقدمي ركابه والقائد راجل، وهم يبشرون الناس بالسلامة، وقتل من الذين خرجوا عليه ثلاثة وقطعوا وأحرقوا، وسلم الرابع، وكان اسمه سالما، ولم يعلم به إلا لما ظفر به مع غيره بعد مدة.

ولم يزل الأفضل محمولا ولا يمكن أحد من الوصول إليه إلى أن دخل به على مرتبته التي كان يجلس عليها أو يمطى. وقال (القائد): للخليفة أدركني وتسلم ملكك لثلا أغلب عليه، وصار أي من لقيه يهنئه بسلامة السلطان ويوهم أهله أن الطيب عنده، ويأمرهم بتهيئة الفراريج والفواكه، وعاد إلى قاعة الجلوس فوجدها قد غصت بالناس، فرد عليهم السلام وهنأهم، وأظهر قوة عزم، ثم عاد إلى القاعة الكبيرة وقد حضر إليه متولي المائدة الأفضلية واستأذنه على السباط المختص بالعيد فقال له: اذبح ووسع، فالسلطان بكل نعمة وهو الذي يجلس على السباط في غد، ومع ذلك فكان في قلق وخوف شديد من أن يبلغ أولاد الأفضل فيجري منهم مالا يستدرك وتنهب الدار.

فلما أصبح الصباح وركب الخليفة ودخل إلى الدهليز الذي كان

يركب منه الأفضل ومعه الأستاذون المحنكون قال القائد أبو عبد الله للخليفة: عن إذن مولانا أفتح الباب، وكان قد منع من الدخول إلى الدار، فقال الخليفة: نعم ففتح على الأفضل وقال له القائد: الله يطيل عمر أمير المؤمنين ويفسح في مدته ويورثه أعمار عماليكه، هذا وزيره قد صار إلى الله تعالى، وهذا ملكه يتسلمه، ثم ضربت للوقت المقرمة (٣٦) على الأفضل، وأمر الخليفة بإحضار من بالقاعة من الأمراء والأجناد، فدخل الناس على غير طبقاتهم إلى أن مثلوا بين يدي الخليفة وهو قاعد على الحصير عند المقرمة، فقال الخليفة للأمراء: هذا وزيري قد صار إلى الله تعالى، ومنكم إلي ومني إليكم، وقد كان القائد واسطته إليكم، وهو اليوم واسطتي إليكم. فشكر الحاضرون ذلك، هذا والقائد وولده مشدود الأوساط بالمناطق، وصاحب الباب على ما كانوا عليه. وتقدم إلي الشيخ أبي الحسن بن أبي أسامة أن يكتب إلى الأعمال بذلك، وأمر الأمراء بالانصراف.

ثم قال القائد: يا مولانا، الأموال والجواهر على اختلافها في الخزائن الكبار عنده، وهي مقفلة ومفاتيحها عندي، وختم عليها وهي في بيت المال المصنوع، وكذلك المفضض التي عند المستخدمين برسم الاستعمال والميناء الذهب المرصعة والتي بغير ترصيع، والبلور التي برسم استعماله، جميع ذلك مثبت عند متولي دفتر المجلس إلا خزانة الكسوة التي برسم ملبوسه ما عندي منها خبر، فأمر من يدخل ويختم عليها، فأمر متولي الخزائن الخاص، وكان سيف الأستاذين، ومتولي بيت المال ومتولي الدفتر، وهم كبار الأستاذين المحنكين بأن يدخلوا ويجتمعوا، ولا يعترض غيرها لا لولده ولا لجهته ولا لبناته ولا لأحد من عياله.

فتوجهوا وقرعوا الباب، فلما شاهدتهم النساء تحققوا الوفاة، وقام الصراخ من جميع جوانب المواضع، وكانت ساعة أزعجت كل من بمصر والحيزة والحزيرة، ثم أسكتوا. وأنفذت الرسل لختم الخزائن التي بمصر.

فبينما هم على ذلك في الليل إذ وصل إلى الخليفة رقعتان على يد أستاذ من القاهرة، من رجلين من جملة الحاشية، يذكران فيها أن أولاد الأفضل قد جمعوا عدة وشنعت حاشيتهم أن في بكرة هذه الليلة يستنصرون بالبساطية والأرمن ويثورون في طلب الوزارة لأخيهم الأكبر، فامتعض الخليفة لذلك، وهم بالارسال إليهم وقتلهم، ثم تقرر الأمر على أن يودعوا الخزانة^(٣٢) من غير إهانة ولا قيود، فتوجه إليهم، فإذا جميع حاشيتهم وغيرها عندهم، والخيل قد شدت، فأودعوا الخزانة.

فلما أصبح الصباح كان قد حمل من القصر في الليل طيافير^(٣٣) فيها عدة موائد للفطر في يوم العيد، وحمل برسوم فطر الخليفة الصواني الذهب، وعليها اللفائف الشرب المذهبة، وكان قد هبىء للخليفة من الليل موضع للمبيت بحيث يبعد عن الأفضل، وعين من وقع الاختيار عليه لقراءة القرآن عند الأفضل.

فلما كان السحر من عيد الفطر جيء بين يدي الخليفة بما أحضر من قصوره في مواعينه الذهب المرصعة، وعليها المناديل المذهبة من التمر المحشو والجوارشينات بأنواع الطيب وغير ذلك، فاستدعى الخليفة القائد وأمره بالمضي إلى باب الحرم لإحضار الأجل المرتضى ابن الأفضل، فمضى لذلك، فأبت أمه من تمكينهم منه، فما زال حتى أسلمته إليه بعد جهد، فأتى به الخليفة فسلم به، وضمه الخليفة إليه وقبله بين عينيه، وأجلسه عن يمينه والقائد عن شماله، وبقية الخواص على مراتبهم.

ثم كبر مؤذنو القصر، فسمى الخليفة وأخذ تمرة وأكل بعضها وناولها للقائد، ثم ناول الثانية لولد الأفضل، فقام كل منهما وقبل الأرض ولم يجلس. وتقدم كل من الحاضرين فأخذ من يد الخليفة من التمر ووقف، فاستدعى القائد الفراش الذي معه الصينيتان النحاس، وأمر فراشي الأسمطة بنقل ما في الأواني التي بين يدي الخليفة في الصواني لتفرق في

الأمراء الذين بالقاعة والدهاليز، فنقلت إليها وحملت إلى المقرمة التي الأفضل وراءها وختم المقرئون.

ثم أظهر الخليفة الحزن على فقد وزيره، فتلثم وتلثم جميع المحنكين والحاشية، وجلس الخليفة على المخدة عند المقرمة، وأمر حسام الملك، حاجب الباب، بإحضار القاضي والداعي والأمراء، فدخل الناس على طبقاتهم. فلما رأوا زي الخليفة اشتد البكاء والعيول، وخرق كل أحد ما عليه، ورميت المناديل - يعني العمائم - إلى الأرض، وبكى الخليفة وحاشيته ساعة، ثم سأل القائد الخليفة أن يفطر على تمره بحيث يشاهده جميع من حضر، ففعل ذلك.

ثم أشار الخليفة إلى القائد أن يكلم الناس عنه: فقال: أمير المؤمنين يرد السلام عليكم، وقد شاهدتم فعله وكونه لم يشغله مصابه بوزيره ومدبر دولته ودولة آبائه عن قضاء فرض هذا اليوم، وقد أفطر بمشاهدتكم، وأمركم بالإفطار، فمسح الخليفة بيده على الصواني، وتقدم القائد إلى الخليفة وصار يناوله من الصواني بيده، فأول ما بدأ بالقاضي ثم الداعي، وتزاحم الناس للأكل

ورفعت الصواني، فأخذ القائد بيد الداعي وقربه من الخليفة، فناوله الخليفة الخطبة، وكانت على يساره ملفوفة في منديل شرب بياض مذهب، فقبلها الداعي وجعلها على رأسه، وضمها إلى صدره، وتقدم القائد لحسام الملك بأن يأخذ الأمراء جميعهم ويطلعون إلى المصلى بالقاهرة لقضاء الصلاة، فتوجهوا في زي الحزن والمؤذنون بين أيديهم، فصلى الداعي بالناس، ثم صعد المنبر فوقف على الدرجة الثالثة منه، وخطب، وكانت الخطبة مبيته فيها الدعاء للأفضل والترحم عليه.

وعندما توجه الناس إلى المصلى أمر ولد الأفضل بالمضي إلى إمامه وإخوته وجهات أبيه ليرد عليهم السلام من أمير المؤمنين ويفطروهم.

وخلا الخليفة بالقائد وأمره بإخراج جميع الجواهر، فقام إلى خزانة كانت عند بيت نوم الأفضل، فوجدها مختمة، ففتحها وأخرج قمطرين عليهما محلية ذهب مملوءين جواهر ما بين عقود مفصلة بياقوت وزمرد وسبح، وقمطرا فيه إحدى عشرة شرابة طوال كل شرابة شبران بجواهر ما تقع عليها قيمة، وصناديق فضة مملوءة مصاغات ما بين عصاب وتيجان ذهب مرصعة بجواهر نفيسة، ففتحت كلها، فشاهد الخليفة منها ما لا يوصف، فسر بذلك سرورا كبيرا، وشكر القائد وقال: « والله إنك المأمون حقا، مالك في هذا النعت شريك ». فقبل الأرض ويديه.

ولهذا النعت قضية، وذلك أنه لما كان في الأيام المستنصرية، وعمر القائد يومئذ اثنتا عشرة سنة، وكان من جملة خاصة المستنصر يرسله إلى بيت المال وخزانة الصاغة في مهاتته، فيجد منه النهضة والأمانة، فيقول هذا المأمون دون الجماعة، ودرجت السنون، فذكرها الخليفة الأمر في ذلك الوقت فقال له: أنت المأمون على الحقيقة، لأجل ذلك.

ثم عاد حسام الملك أفتكين صاحب الباب، والداعي وجميع الأمراء من المصلى، ومثلوا بين يدي الخليفة، ووقع حينئذ الاهتمام بتجهيز الأفضل، وتقدم إلى زمام القصور بإخراج ما قد مزجه عرق الأئمة، وتقدم إلى ريجان متولي بيت المال بإخراج ما يجب إخراجه برسم المأتم، فمضيا، وتقدم إلى حسام الملك بإعلام الأمراء والأجناد والشهود والقضاة والمتصدرين والمقرين وبني الجوهري الوعاظ وغيرهم لحضور الجنازة وتلاوة القرآن. فعاد زمام القصور ومتولي بيت المال ومعهما عشرون صينية ملفوفة في عراضي ديبقي بياض مملوءة صندلا مطحونا، ومسكا وكافورا وحنوطا وقطنا، وفي صدر الآخر منديل ديباج فيه ما رسم بإحضاره من ملابس الخلفاء وطيا السهم، ووصلت أيضا الموائد على رؤوس الفراشين، وهي مائة شدة، صحبة متولي المائدة الأمرية، فمد السهاط بين يدي الخليفة، ومد سهاطان، أحدهما بالقاعة وهو برسم الأمراء، والآخر برسم

القاضي والداعي والشهود والمقربين والوعاظ والمؤمنين، وحمل إلى الجهات
الأفضليات شيء كثير.

فلما انقضى الأكل عاد الجميع بالقاعة، وذكر أنه ختم على الأفضل في
هاتين الليلتين واليوم نيف وخمسون ختمة، فلما انقضى معظم الليلة،
الثاني من شوال، تقدم الخليفة بإحضار داعي الدعاة، ولي الدولة ابن
عبد الحقيق، وأمره بغسل الأفضل على ما يقتضيه مذهبه، وكفن بما
حضر من القصر، وأخرج للداعي بذلتان مكملتان، مذهبة وحرير، عوضا
عما كان على الأفضل من ثياب الدم، فإنها لم تنزع عنه، وعند كمال غسله
دفع للداعي ألف دينار.

فلما كان في الثالثة من نهار يوم الثلاثاء ثاني شوال خرج التابوت
بالجمع الذي لا يحصى، والناس بأجمعهم رجالة، وليس وراءهم راكب إلا
الخليفة بمفرده وهو ملثم، فلما خرج التابوت من بلد مصر أمر الخليفة
بركوب القائد والمرضى ولد الأفضل، وذكر أن الشيخ أبا الحسن بن أبي
أسامة ركب حمارا، فلما وصلت الجنازة إلى باب زويلة ترجل القائد
والمرضى ومشيا، وبعث الخليفة خواصه إلى أخويه: أبي الفضل جعفر
وأبي القاسم عبد الصمد، وأمرهما إذا وصل التابوت إلى باب الزهومة:
يخرجوا بغير مناديل، بعمام صغار وطاليس، فإذا قضيا ما يجب من حق
سلام الخليفة يسلموا على القائد أبي عبد الله بمثل ما كانا يسلمان على
الأفضل، ويمشيان معه وراء التابوت. فاعتمدا ذلك فاستعظم الناس
هذه الحالة والمكارمة، ولم يزالا مع الناس وراء التابوت إلى أن دخل من
باب العيد^(٢٤).

ورد على ورقة مفردة ما يلي:

....العنبر ومائة مسهار من ذهب زنة كل مسهار مائتا مثقال على كل

مسار عمامة لون، وخلف عشرة صناديق فيها من نفيس الجواهر ومن
القضيب الزمرد الذي قصبه لا يوجد مثلها، وخلف خمسمائة صندوق من
دق تنيس ودمياط وثمان مائة من الزبادي الصيني والبلور والمحكم
وستمائة حمل وثلاثة آلاف ملعقة ذهباً، وعشرة آلاف زبدية فضية كبار
وصغار، واربعة قُدور ذهب وزن كل قدر مائة رطل بالمصري، وستة آلاف
خريطة ديباج، وثلاثة آلاف وسبعمائة خاتم ذهب بفصوص ياقوت وزمرد
والف خريطة مملوءة دراهم - خارجاً عن الأدب - في كل خريطة
عشرة آلاف درهم. ومن الخدم والرقيق والخيل والبغال والجمال والسروج
المحلاة، ومن حلي النساء ما لا يحصى عدده الا الله تعالى. واقام الأمر
بدار الملك طوال شهر ايلول يحمل في كل يوم على مائتي جمل الى
القاهرة من دار الملك دفعتين في النهار ودفعة في الليل طول الشهر،
مائتي جمل كل يوم. وخلف الف حسكة فضة وثلاثة آلاف نرجسة فضة،
والف صدر ذهب والفي صدر فضة منقوشة، وثلاثمائة ثور ذهب
واربعة آلاف ثور فضة والف بوق كبير من ذهب، وخلف من المراكب،
يعني السروج، المرصعة مائة مركب، ومن الآلات والبسط الارمنية
والاندلسية والطبرستانية ما ملء به خزائن الايوان، وداخل قصر الزمرد
من الجاموس وبقر الخيس والاغنام ما يباع لبنيه في كل سنة بضمناً ابي
الحسين بن يزيد بثلاثين الف دينار، وفي حاصل الاهراء والمناخات ما
لا يحصى كثرة ولا يعرف مقداره.

وورد ايضا على طرف الورقة:

وعند قوله والافضل هو الذي انشأ بستان البعل ما مثاله بخط
المؤلف وعمل الافضل في داره... واقترح على الشعراء النظم فيها وانشد
لنفسه فيها:

نزهوة عين الغاب والناظر

ومجلس للملك الناصر

كأنما الأفضل في أفقها

شمس الضحى في الفلك الدائر

ونزع السعر في أيامه بمصر، فأمر مشارف الأهرام بفتح المخازن وبيع القمح بثلاثين دينارا لكل مائة اردب. فقال يا سيدي: القمح كل اردب بدينار تبيع انت بثلاثين دينارا المائة. فانتهره وقال : يا شيخ، تريد ان يسمع عن ايامي شدة تعرف بشدة ابن عرس - وكان هذا المشارف يعرف بابن عرس - بع كما امرتك فعندي من البذر ما يقوم بالناس عشر سنين لاسيما القمح فامثل ذلك وبيع بثلاثين دينارا كل مائة اردب، وكان الناس يشترون ويبيعون على باب المخزن كل اردب بدينار، فحصل لهم من هذا المتجر مال عظيم وحسنت احوالهم، وكثرت الاموال في ايدي الرعية مدة ايامه. وكان لا يولي عملا من الاعمال الا لمن هو كفء له، ويضع الاشياء في مواضعها، مع كثرة موافاته بما يعمله الولاية.. واكثر رفاقة للرعية وتبسطه للعدل، فكان الولاية في ايامه لا تمد يد واحد منهم الى مظلمة خوفا منه فانه كان اذا بلغه عن احد منهم ميل عن سيرة العدل نكل به، فاستقامت لذلك الامور وحسنت الاحوال، ومات وامور الدولة قد اسندها الى عدة من رؤساء اصحابه، فاسند امور

العساكر جميعا وامارة الباب الى الامير حسام الدين افندي، ورد امور الرعية وشكاواهم وظلاماتهم والخذ والعطاء والمجلس الى القائد ابي عبد الله ابن فاتك، ورد امر الدواوين والاموال والعمال الى ابن ابي الليث، ورد امور الأجر والصناعات الى ابن ابي البيان، ورد ديوان

المكاتبات والنظر في الاحكام والاعمال وما يخص الشريعة الى الشيخ ابي
الحسن بن ابي عثمان..

فلما صار التابوت في وسط الإيوان هم الخليفة بأن يترجل، فسارع إليه
القائد والمرضى، وصاح الناس بأجمعهم: العفو يا أمير المؤمنين. عدة
مرار، فترجل الخليفة على الكرسي، وصلى عليه، ورفع التابوت فمشى

وراءه، وركب الخليفة الفرس على ما كان عليه، ونزل التربة ظاهر باب النصر ووقف على شفير القبر إلى أن حضر التابوت

واستفتح ابن القارح المغربي وقرأ: « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم » (٣٥) الآية. فوقعت من الناس موقعا عظيما، وبكوا، وبكى الخليفة، وهم ينزلون القبر ليلحده بيده، ثم أمر الداعي فنزل وألحده والخليفة قائم إلى أن كملت مواراته، ثم ركب من التربة والناس بأجمعهم بين يديه إلى قصره.

وأخرج من قاعة الفضة بالقصر ثلاثون حسكة، وثلاثون بخورا مكملة، وخمسون مثقال ند وعود، وشمع كثير، فأشعلت الشموع إلى أن صلى الصبح وأطلق البخور، واستقر جلوس الناس، فصلى القاضي بالناس، وفتح باب مجلس الأفضل المعلق بالستور القرقوبي الذي لم يكن حظه منه إلا جوازه عليه قتيلا، ورفعت الستور، وجلس الخليفة على المخاد الطبري التي عملت في وسطه، وسلم الناس على منازلهم، وتلى القرآن العظيم وتقدمت الشعراء في رثائه إلى أن استحق الختم فختم، ثم خرج القائد والأمراء إلى التربة فكان بها مثل ما كان بالدار من الآلات والبخور. وعمل في اليوم الثاني كذلك .

وكان عمر الأفضل يوم مات سبعا وخمسين سنة، ومدة ولايته ثمانية وعشرون عاما.

ويقال إن الأمر وافق المأمون على قتله، فرتب له من قتله.

ثم أمر أن يكتب سجل بتعزية الكافة في الأفضل والثناء على خصائصه ومساعيه، وإشعارهم بصرف العناية إليهم ومد رواق العدل عليهم، وتفريقه على نسخ تتلى على رؤوس الأشهاد وبسائر البلاد. فكتب ما مثاله:

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي، الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين بما رآه وأمر به من تلاوة على كافة من بمدينة مصر - حرسها الله تعالى - من الأشراف والأمراء ورجال العساكر المؤيدة على اختلاف طبقاتهم، فارسهم ومترجلهم وراجلهم، والقضاة والشهود والأماثل، وجميع الرعايا، بأنكم قد علمتم ما أحدثته الأيام بتصاريفها، وجرت به الأقدار على عاداتها وألوفها من فقد السيد الأجل الأفضل ونعوته - قدس الله روحه، ونور ضريحه، وحشره مع مواليه الطاهرين الذين جعلهم أعلام الهدى ومصايحه، الذي كان عماد دولة أمير المؤمنين وحمال أثقالها، وعلى يديه وحسن سيرته اعتمادها ومعولها، وتخطي الحمام إليه، واخترام المنية إياه وتسلطها عليه، وما تدارك الله الدولة به من حفظ نظامها، واستتار أمورها بعد هذا الفادح العظيم والتأمام، وما رآه أمير المؤمنين من تهذيب للأمر بنظره السعيد، ومباشرته إياها بعزمه الشديد، واهتمامه بمصالح الكافة، وإسباغ ظل الإحسان عليهم والرفقة، حتى أصبحت الدولة الفاطمية بذلك ظلية المناكب، منيرة الكواكب، محروسة الأرجاء والجوانب.

ولما كانت همة أمير المؤمنين مصروفة إلى الاهتمام بكم، والنظر في مصالحكم، والإحسان إليكم، وتأمين سربكم، وإعذاب شريككم، ومد رواق العدل عليكم، وإنصاف مظلومكم من ظالمكم، وضعيفكم من قويكم، ومشروفكم من شريفكم، وكف عوادي المضار بأسرها عنكم، وتمكينكم من التصرف في أديانكم على ما يعتقده كل منكم، جارين على رسمكم وعاداتكم، من غير اعتراض عليكم - رأى ما خرج به على أمره من كتب هذا السجل وتلاوته على جميعكم، لتثقوا به، وتسكنوا إليه، وتتحققوا جميل رأي أمير المؤمنين فيكم، وأنه لا يشغله عن مصالح الكافة شاغل، وأن باب رحمته مفتوح لمن قصده، وإحسانه عميم شامل، وله إلى تأمل أحوال الصغير والكبير منكم عين ناظرة، وفي إحسان

سياستكم عزيمة حاضرة وأفعال ظاهرة، والله تعالى يمدّه بحسن الإرشاد، ويبلغه المراد في مصالح العباد والبلاد، بمنه وعونه.

فاعلموا هذا من أمير المؤمنين ورسمه، وانتهوا إلى موجبه وحكمه وليعتمد الأمير متولي المعونة بمصر تلاوته على منبر الجامع العتيق بمصر ليعيه كل من سمعه، ويصل علم مضمونه إلى من لم يحضر قراءته، ليتحققوا ما ذكر فيه وأودعه، وليحمل الناس على ما أمر به فيه، وليحذر من مجاوزته وتعديه، وليقرأ بالجامع المذكور ليقع التصفح والتأمل في اليوم وما يليه، إن شاء الله تعالى».

ثم أمر الخليفة بإنشاء منشور يتلى، مضمونه:

« خرج أمر أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، بإنشاء هذا المنشور بأن يعتمد في ديوان التحقيق والمجلس وسائر دواوين الدولة، قاصيها ودانيها، قريها ونائيها، إمضاء ما كان السيد الأجل الأفضل قرره، وخرجت به توقعاته الثابتة عليها علامته في الأحكام والأموال بتصاريف الأحوال، إذ أمر أمير المؤمنين راض بأفعاله، محقق لأقواله، حامد لمقاصده، ممرض لأحكامه، عارف بسداد رأيه في نقضه وإيرامه، على أوضاعها وأحكامها، وتقريراته في كل منها، فليحذر كافة الأمراء وسائر الولاة - نصرهم الله وأظفرهم - وجميع النواب والمستخدمين، والكتاب والمتصرفين بجميع الأعمال من تأول فيه، أو تعقب فغير شيئاً من أحكامها على ما قرره وأمر به. وليخلد هذا المنشور في ديوان التحقيق والمجلس بعد ثبوته في جميع الدواوين، وليصدر الإعلان به إلى كافة الجهات بهذا المرسوم، تثبتاً لهذا الأمر المذكور المحتوم، إن شاء الله تعالى».

وفي السادس والعشرين من شوال عمل تمام الشهر على تربية

الأفضل، كما عملت الصبحة والثالث. فلما انقضى الختم وانصرف الناس ركب الخليفة بموكبه، ونزل إلى التربة، وترحم عليه وعاد، ذكر هذا جمال الملك موسى بن المأمون البطائحي في تاريخه.

قال ابن ميسر: وأقام الخليفة في دور الأفضل، وفي دار الملك بمصر ودار الوزارة بالقاهرة وغيرهما مدة أربعين يوماً، والكتاب بين يديه يكتبون ما ينقل إلى القصور، فوجد له من الذخائر النفيسة ما لا يحصى.

فما وجد له ستة آلاف ألف دينار عينا، وفي بيت الخاصة ثلاثة آلاف ألف دينار وفي البيت البراني ثلاثة آلاف ألف ومائتا ألف وخمسون ألف دينار، ومائتين وخمسين إردبا دراهم ورقا، وثلاثين راحلة من الذهب العراقي المغزول برسم الرقم، وعشرة بيوت في كل بيت عشرة مسامير ذهب كل مسمار وزنه مائتا مثقال عليها العمامة المختلفة الألوان، وتسعمائة ثوب ديباج ملونة، وخمسمائة صندوق من دق دمياط وتيس برسم كسوة بدنه، ولعبة من عنبر على قدر جسده برسم ما يعمل عليها من ثيابه لتكتسب الرائحة، ومن الطيب والآلات ما لا يحصى عدده، ومن الأبقار والجاموس والأغنام والجمال ما بلغ ضمان ألبانه وتناجه في سنة نحو أربعين ألف دينار، ودواية يكتب منها مرصعة بالجواهر، قوم جوهرها باثني عشرة ألف دينار، وخمسمائة ألف مجلدة من الكتب العلمية.

قال: وأخذ الأمر في نقل ما بدار الأفضل إلى القصر، وهو يرتب ما يحمل بنفسه، هو وأصحابه، واستمر ذلك مدة شهرين وأيام، والأموال تحمل على بغال وجمال إلى القصر، والأمر يطلع إلى القصر ويعود كل غداة ويقوم حتى يرتفع النهار ويرتب ما يفعل.

وذكر متولي الخزانة بالقصر أن مما وجد في دار الأفضل ستة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار، وورق قيمته مائتا ألف وعشرون ألف دينار،

وسبعمائة طوق ما بين ذهب وفضة، ومن الأسطال والصحاف والشربات والأباريق والقذور والزابادي الذهب والفضة المختلفة الأجناس ما لا يحصى كثرة، ومن براني الصيني الكبار المملوءة بالجواهر التي بعضها منظوم كالسبح وبعضها منشور شيء كثير.

وكان الأفضل في أوقات الشرب يصف في مجلسه صواني الذهب، وبينها البراني المملوءة بالجواهر، فإذا أحب فرغت البرنية في الصينية فتكون ملئها.

ووجد له من أصناف الديباج وما يجري مجراه من عتاي ونحوه تسعون ألف ثوب وثلاثة خزائن كبار مملوءة صناديق كلها ديبقي وشرب عمل تيس ودمياط، على كل صندوق شرح ما فيه وجنسه. وخزانة الطيب مملوءة أسفاطاً، فيها العود وغيره، مكتوب على كل سفظ وزنه وجنسه، وبراني بها المسك والكافور وشيء كثير من العنبر، ووجد مجلس يجلس فيه للشرب فيه ثمان جوار متقابلات، أربع منهن بيض من كافور وأربع سود من عنبر، قيام في المجلس، عليهن أفخر الثياب وأتمن الحلي، بأيديهن مذايب من أعظم الجواهر، فإذا دخل من باب المجلس ووطيء العتبة نكسن رؤوسهن خدمة له بحركات قد أحكمت، فإذا جلس في صدر المجلس استوين قائلات.

ووجد له من المقاطع والستور والفرش والمطارج والمخاد والمساند الديباج والديبقي الحريري والذهب على اختلاف الأجناس أربع حجر، كل حجرة مملوءة من هذا الجنس. ووجد له عدة صناديق ملء خزانة فيها أحقاق ذهب عراقي برسم الاستعمال، ووجد له منقلات عدة تزيد على المائة، ملبسة بالذهب والفضة، مرصعة بالجواهر، وثمانمائة جارية منها خمسة وستون حظية لكل واحدة حجرة، وخزائن مملوءة بالكسوة والآلات والذهب والفضة من كل صنف.

وكان في مخازنه تحت يد عماله والجباة وضمان النواحي من المال والحبوب والقطن والكتان والشمع والحديد والخشب وغير ذلك ما يتعب شرحه.

وحمل من داره أربعة آلاف بساط، وستون حملا طنافس، وخمسمائة قطعة بلور، وخمسمائة قطعة محكم برسوم النقل، وألف عدل من متاع اليمن والمغرب، وتسعة آلاف سرج.

قال ابن ميسر: وكان الأفضل من العدل وحسن السيرة في الرعية والتجار على صفة جميلة تجاوز ما سمع به قديما وشوهد أخيرا، ولم يعرف أحد صودر ولا ضبط عليه.

ولما حصر الاسكندرية كان بها يهودي يباليغ في سبه وشتمه ولعنه، فلما دخل الأفضل البلد قبض عليه وقدمه للقتل وقد عدد عليه ذنوبه، فقال اليهودي: إن معي خمسة آلاف دينار، خذها مني وأعتقني واعف عني، فقال: والله لولا خشية أن يقال قتله حتى يأخذ ماله لقتلتك، وعفا عنه ولم يأخذ منه شيئا، وكان إذا غضب على أحد اعتقله ولم يقتله، فلما مات أطلق من سجنه عشرة آلاف إنسان، فإنه كان إذا اعتقل أحد نسيه ولا يرى بإخراجه.

وكانت محاسنه كثيرة. وهو أول من أفرد مال المواريث ومنع من أخذ شيء من التركات على العادة القديمة، وأمر بحفظها لأربابها، فإذا حضر من يطلبها وطالعه القاضي بثبوت استحقاقه أمره في الحال بإطلاق ما ثبت له، واجتمع بمودع الحكم من مال المواريث التي تنتظر وصول مستحقها من شرق الدنيا وغربها مائة ألف وثلاثون ألف دينار، فرفع إليه قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الرأس عيني لما ولي أن

« قد اعتبرت ما في مودع الحكم من مال المواريث فكان مائة ألف دينار، ورفعتها إلى بيت المال أولى من تركها في المودع، فإن لها السنين الطويلة لم يطلب شيء منها ». فوق رقعته: « إنما قلدناك الحكم ولا رأي لنا فيما لا نستحقه، فاتركه على حاله لمستحقه ولا تراجع فيه » فأخذها هذا القاضي عرفا.

وبلغ ارتفاع خراج مصر في أيامه لسنة خمسة آلاف ألف دينار، ومتحصل الأهراء ألف ألف إردب. وبنى في أيامه من المساجد والجوامع جامع الفيلة بالجرف المعروف بالرصد، والمسجد المعروف بالجيوشي على سطح الجبل، وبنى مئذنة جامع عمر بمصر الكبيرة والمئذنة السعيدة به أيضا والمئذنة المستجدة وجامع الجيزة، وعمل خيمة الفرع التي سميت بالقاتول، اشتملت على ألف ألف وأربعمائة ألف ذراع من الثياب، وقائم ارتفاع العمود الذي لها خمسون ذراعا بذراع العمل^(٣٦)، وبلغت النفقة عليها عشرة آلاف ألف دينار. وللشعراء فيها عدة مدائح.

وكان الأفضل يقول الشعر. فمن شعره في غلامه تاج المعالي:

أقضيـبـيـميس، أم هـوقـد
أوشقيـقـيلـوح، أو هـوخـد
أنامثل الهلال خوفـاعليه
وهو كالبدر حين وافاه سعد

وكان شديد الغيرة على نسائه، اطلع من سطح داره فرأى جارية من جواريه متطلعة إلى الطريق، فأمر بضرب عنقها، فلما وضعت الرأس بين يديه أنشد:

نظرت إليها وهي تنظر ظلها
فزهت نفسي عن شريك مقارب

أغار على أعطافها من ثيابها
حذارا ومن مسك لها في الذوائب
ولي غيرة لو كان للبدن مثلها
لما كان يرضى باجتماع الكواكب

قال: وكان عدة الوعاظ والقراء والمنشدين في عزاء الأفضل أربعمائة وعشرين شخصا فخرج أمر الخليفة أن يعطى كل واحد منهم ثمانين دينارا، الصغير مثل الكبير، فقال ابن قيراط: يا مولانا، هذا مال كثير، فقال: إنفاذ أمرنا هذا من بعض حقه علينا، فجاء مبلغ ما دفع نحو من أربعة وثلاثين ألف دينار.

قال: والأفضل هو الذي أنشأ بستان البعل، والمنتزه المعروف بالتاج، والخمس وجوه^(٣٧) والبستان الكبير، والبستان الخاص بقلوب^(٣٨) وجدد بستان الأمير تميم بركة الحبش، وأنشأ الروضة بحري الجزيرة، وكان يمضي إليها في العشاريات الموكبية، رحمه الله.

في مستهل ذي القعدة خلع على القائد أبي عبد الله بن فاتك بذلة مذهبة بشدة الخليفة الداعية، وحلت المنطقة من وسطه، وخلع على ولده بذلة مذهبة، وحلت منطقته أيضا، وعلى جميع إخوته بمثل ذلك.

واستمر ينفذ الأمور لا يخرج شيء عن نظره إلى مستهل ذي الحجة، ففي يوم الجمعة ثانيا خلع عليه من ملابس الخاص الشريفة في فردكم مجلس العيد، وطوق بطوق ذهب مرصع، وسيف ذهب مرصع، وسلم على الخليفة، فأمر الخليفة الأمراء وكافة الأستاذين المحنكين^(٣٩) بالخروج بين يديه، وأن يركب من المكان الذي كان الأفضل يركب منه.

ومشى في ركابه القواد على عادة من تقدمه، وخرج بتشريف الوزارة، ودخل من باب العيد راكباً، ووصل الى داره، فضاعف الرسوم وأطلق الهبات.

وفي خامسه اجتمع الأمراء واستدعى الشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة، فحضر بالسجل في لفافة خاص مذهبة فسلمه الخليفة إلى الأجل المأمون من يده، فقبله وسلمه لزماد القصر، وأمر الخليفة المأمون فجلس عن يمينه، وقرىء السجل على باب المجلس، وهو أول سجل قرىء بهذا المكان، وكانت سجلات الوزراء قبل ذلك تقرأ بالايوان، ورسم للشيخ أبي الحسن ان ينقل نسبة الأمراء والمحنكين والناس جميعهم من الأمري الى المأموني، ولم يكن أحد قبل ذلك ينتسب للأفضل ولا الأمير الجيوش، وقدمت للمأمون الدواة فعلم في مجلس الخليفة، وتقدم للأمراء والأجناد فقبلوا الارض وشكروا هذا الاحسان، واحضرت الخلع، فخلع على حاجب الحجاب حسام الملك، وطوق بطوق ذهب، وسيف ذهب ومنطقة ذهب، وخلع على الشيخ أبي الحسن بن أبي اسامة كاتب الدست، وعلى الشيخ أبي البركات بن أبي الليث، وعلى أبي الرضا سالم ابن الشيخ أبي الحسن، وعلى أبي المكارم أخيه، وعلى أبي محمد أخيها، وعلى أبي الفضل أخيها يحيى بن سعيد الميمذي^(٤٠) ووصل بدنانير كثيرة بحكم انه قرأ السجل.

وخلع على أبي الفضائل بن أبي الليث صاحب مغفر المجلس. ثم استدعى غذي الملك سعيد بن عمار الضيف متولي امور الضيافات والرسل الواصلين الحضرة من جميع الجهات وأخذ اقلامه على التوقيعات فخلع عليه. وفي الايام الافضلية لم يكن احد يدخل مجلسه ولا يصل لعتبته لامن الحجاب ولاغيرهم سوى غذي الملك هذا فانه كان يقف من داخل العتبة، وكانت هذه الخدمة اذ ذاك من اجل الخدم واكبرها.

وقال أبو الفتح بن قادوس^(٤١) في مدح المأمون وقد زيد في نعوته:
قالوا اتاه النعت وهو السيد
مأمون حقاً والأجل الأشرف
ومغيث أمة أحمد ومجيرها
ما زادنا شيئاً أعلى مانعرف

وذلك أنه نعت في سجله المقروء على الكافة «بالأجل المأمون، تاج
الخلافة، وجيه الملك، فخر الصنائع، ذخر أمير المؤمنين». ثم تجدد في
نعوته بعد ذلك «الأجل المأمون، تاج الخلافة، عز الإسلام، فخر الأنام،
نظام الدين والدنيا». ثم نعت بما كان ينعت به الأفضل وهو «السيد
الأجل المأمون، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة
المسلمين، وهادي دعاة المؤمنين».

ولما استمر نظر المأمون للدولة بالغ الخليفة في شكره، فقال له المأمون:
ثم كلام يحتاج الى خلوة. فأمر بخلو المجلس. فقال: يا مولانا امثال
الأمر متعب، ومخالفته أصعب، وما تتسع خلافة قدام أمر الدولة وهو في
دست خلافته ومنصب آبائه وأجداده، وما في قواي ما يرومه مني،
ويكفيني هذا المقدار، وهيئات أن أقوم به والأمر كبير، فتغير الخليفة
وأقسم: ان كان لي وزير غيرك! فقال المأمون: لي شروط، وقد كنت مع
الأفضل وكان اجتهد في النعوت وحل المنطقة فلم أفعل، وكان أولاده
يكتبون إليه يكوني قد ختته في المال والأهل، وما كان والله العظيم ذلك
مني يوماً قط، ومع ذلك معاداة الأهل جميعهم، والأجناد، وأرباب
الطيالس والأقلام، وهو يعطيني كل ورقة تصل إليه منهم وما يسمع
كلامهم، فقال الخليفة: فإذا كان فعل الأفضل معك ما ذكرته، إيش
يكون فعلي أنا؟ فقال: يعرفني المولى ما يأمر به فأمثله بشرط ألا يكون
عليه زائد، فأول ما ابتداء به ان قال: أريد الأموال لاتبقى إلا بالقصر،
ولاتصل الكسوات من الطراز^(٤٢) والشغور إلا إليه ولا تفرق إلا منه،

وتكون أسمطة الأعياد فيه، وتوسع في رواتب القصور من كل صنف وزيادة رسم منديل الكم، فقال المأمون: سمعا وطاعة، أما الكسوات والجبايات والأسمطة فما تكون إلا بالقصور، وأما توسعه الرواتب فما ثم من يخالف الأمر، وأما منديل الكم فقد كان الرسم في كل يوم ثلاثين دينارا، يكون في كل يوم مائة دينار، ومولانا سلام الله عليه، يشاهد ما يعمل بعد ذلك في الركوبات وأسمطة الأعياد وغيرها، ففرح الخليفة. وقال المأمون: أريد بهذا مسطورا بخط أمير المؤمنين، ويقسم لي فيه ألا يلتفت لحاسد ولا ينقبض، ومهما ذكر عني يطلعني عليه، ولا يأمر في بأمر سرا ولا جهرا يكون فيه ذهاب نفسي وانحطاط قدري، وتكون هذه الأيمان باقية إلى وقت وفاتي، فإذا توفيت تكون لأولادي ولمن أخلفه بعدي.

فحضرت الدواة، وكتب ذلك جميعه، وأشهد الله في آخرها على نفسه، فعندما حصل الخط بيد المأمون وقف وقبل الأرض وجعله على رأسه، وكان الخط نسختين، فلما قبض الخليفة على المأمون في رمضان سنة تسع عشرة وخمسة، كما سيأتي إن شاء الله، أنفذ الخليفة طلب الأمان، فأنفذ إليه نسخة منها فحرقها وبقيت النسخة الأخرى فعدمت.

وفيها أنشأ المأمون الجامع الأقرم بالقاهرة^(٤١)، وكان مكانه دكاكين علافين.

في هذه السنة هبت بمصر ريح سوداء ثلاثة أيام، فأهلكت شيئا كثيرا من الناس والحيوان^(٤٢)

سنة ست عشرة وخمسة

في المحرم كان المولد الأمري، وتقرر السلام على الخليفة في يوم الاثنين والخميس فأما في يومي السبت والثلاثاء فيركب الوزير بالرهجية إلى

القصر، ويركب الخليفة إلى ضواحي القاهرة للنزهة، وأما الأحد والأربعاء فيجلس الوزير المأمون في داره على سبيل الراحة.

وفي صفر سب أحد صبيان الخاص الأمري صاحب الشرع وشهد عليه، فضربت عنقه وصلب.

فيه وصل فخر الملك أبو علي عمار بن محمد بن عمار، صاحب طرابلس. وكانت الدولة، قد حولت الثغر في أيديهم على سبيل الولاية، فلما جاءت الشدائد تغلبوا عليه، ثم جاءت الدولة الجيوشية فخافوا مما قدموه فلم يرموا أيديهم في يدها ولا وثقوا بما بذل لهم من الصفح عن ولاتهم، ومضى ذلك السلف، وخلفهم القاضي فخر الملك هذا في الأيام الأفضلية فجرى في تلك الوتيرة، ودفع إلى محاصرة الفرنج مدة سبع سنين، فضاقت خناقه، وأيس، فخرج من طرابلس إلى العراق مستنجدا فلم يجد ناصرا، واختلت أحواله، وعاد إلى دمشق وقد ملك الفرنج طرابلس فسار إلى مصر، وقال في كتابه: « والمملوك لم يصل إلى هذه الوجهة إلا وقد علم أن له من الذنوب السالفة ما يستحق به القتل، وقتله بسيوف هذه الدولة عدل وإحياء له وتشريف، وفخر يكفر عنه بعض ذنوبه من كفر نعمتها، فإن خرج الأمر بذلك فمنة كريمة، وإن خففت عنه فتخليده في السجن أحب إليه من رجوعه إلى تأميل غير هذه الدولة».

فلما عرض هذا بالحضرة أدركته الرأفة بعد أن أستفطع كل من الحاضرين أمره، وأشير بإيقاع الحوطة عليه وإيداعه خزانة البنود، فقال المأمون للخليفة: « قد أجل الله عواطف مولانا ورحمته من أن يهاجر أحد إلى أبوابه ويلجأ إلى عفوه فيخيب أمله ويؤاخذ بذنبه، وما بعد استسلامه إلا الشكر لله والعتو عن جرمه، فإن العفو زكاة القدرة عليه، ويشمله ما شمل أمثاله»، فأعجب الخليفة الأمر ذلك، وخرج الأمر بأن تعدد على ابن عمار ذنوبه وذنوب أسلافه، ويقال له: « قد أذهبت

مهاجرتك ما كان يجب من عقوبتك». فإذا اعترف بذنوبه وذنوب أسلافه يقال له: «قد غفر ذنبك وأنت خير بين أمرين: إما أن تعود فيصل إليك من الإنعام ما يبلغك إلى حيث تريد، ويصحبك من يوصلك إلى مأمئك، وإما أن تؤثر الإقامة بفناء الدولة فتقيم على أنك تلزم ما يعينك وتقتنع بما ينعم به عليك، وتقبل على شأنك، وتترك التعرض للمخالطات، وتتجنب جميع المكروهات».

فلما خوطب بذلك قبل الأرض وأبى أن يرفع رأسه ووجهه، وكلمها خوطب في رفعه قال: «لست أرفعه حتى أتلقى كلمات العفو عن إمام زمني، وتمتلىء مسامعي بألفاظ مغفرته».

فبلغته الحضرة النبوية ما تمناه، وحصل له الأمن، وأمر به إلى دار أعدت له وجعل فيها شهوات السمع والبصر، وحملت إليه الضيافات الكثيرة، وجرى برسم خدمته حاجب معه عدة مستخدمين. فأقام أياماً يسيرة ثم حملت إليه الكسوات التي لا نظر لها، ووصله من المواهب ما أربى على أمه. وقرر له، راتباً في كل شهر، ستون ديناراً مع مياومة الدقيق واللحم والحیوان، وصار يتعهد ما يفتقد به أعيان الضيوف من بواكير الفاكهة المستغربة، وأنواع التحف المستظرفة ورسوم المواسم، ورفع عنه الحاجب والمستخدمون، وجعل له في المواسم والأعياد من الكسوات الفاخرة ما يميزه به عن أمثاله، ولزم طريقة جمده منه، فاستمر إليه الإحسان، وصار يركب في يومي الركوب ويومي السلام وغيرهم.

فيه أفرج عن الأمير غضب الدولة عز الملك أبي منصور نبأ، وكان له في الاعتقال ثلاث عشرة سنة، لأنه كان والي عكا وسلمها إلى الفرنج، فلما وصل رماء الأفضل في الاعتقال، فلما أفرج عنه أعيد عليه نظير ما كان قبض عنه للاصطبلات والخزائن، وولي البحيرة.

وأفرج عن جماعة أمراء كانوا معتقلين، منهم أبو المصطفى جوهر، ودخل السجن وهو شاب فخرج منه وهو شيخ، وكانت مدة اعتقاله خمس عشرة سنة.

فيه وصل رسول الشريف قاسم أمير مكة، الذي حضر في الأيام الأفضلية بسبب أموال التجار، ومعه كتاب بتهنئة المأمون، فجهز إلى الأعمال القوصية بالاهتمام بالجناب الديوانية وترميم ما يحتاج إلى المرممة، وتجديد عوض ما تلف، وأطلق له ثمانية آلاف وتسعمائة وأربعون إردبا برسم مكة، ونحوت ثياب وخلع ومال وبخور.

وفيه غلا الزيت الطيب والسيرج، فكتب المستخدمون في الخزائن ومشاركة الجوامع بأن يكون المطلق برسم الوقود وفي المشاهد عوضا عن الزيت الطيب الزيت الحار، فخرج الجواب بالتحذير من ذلك وبألا يطلق إلا الزيت الطيب، ولا يلتفت إلى غلو السعر في الخدم التي هي من حق الله تعالى فلا يجب الرخصة فيه ولا ينقص من المطلق شيء. وبلغ المأمون أن مشارف الجوامع والمساجد اشترى من ماله صبورا وخلطه بالزيت لمنع القومة من التعرض لشيء منه، فأنكر ذلك وأمر بإحضاره وأن يقوم من ماله بثمان الزيت الذي فيه الصبر، ويطلق الزيت المستقر إطلاقه على تمامه. وقيل له: قومة الكنائس والمقيمون بها والطارقون لها لا يقتاتون إلا من فضلات وقود كنائسهم، ونحن نبيح لهؤلاء الأكل ونحرم عليهم البيع.

وتقدم الأمر بعمل حساب الدولة من الهلالي والخراجي على جملتين: إحداهما إلى سنة عشر وخمسمائة، والثانية إلى آخر سنة خمس عشرة وخمسمائة، فانعقدت على جملة كثيرة من عين وأصناف، وشرحت بأسماء أربابها وتعيين بلادها، فلما حضرت أمر بكتابة سجل بالمساحة إلى آخر سنة عشر وخمسمائة، ومبلغ ما سومح به من البواقي ألفا ألف وسبعمائة

ألف وعشرون ألفا وسبعمائة وستون ديناراً، ومن الورق سبعة وستون ألفاً وخمسة دراهم، ومن الغلة ثلاثة آلاف ألف وثمانمائة ألف وعشرة آلاف ومائتان وتسعة وثلاثون إردباً، ومن الأرز والكتان وورق الصباغ وزريعة الوسمة والصباغ والقوة والحديد والزفت والقطران والثياب والمآزر والغرابيل شيء كثير، ومن الأغنام مائتا ألف وخمسة وثلاثون ألفاً وثلاثمائة وخمسة رؤوس، ومن البسر^(٤٣) والسحيل^(٤٤) والجريد والسلب^(٤٥) والأطراف والملح والأشنان والرمان وعسل النحل والشمع وعسل القصب شيء كثير، ومن الأبقار اثنان وعشرون ألفاً ومائة وأربعة وستون رأساً، ومن الدواب والسمن والجبن والصفوف والشعر شيء كثير.

وقد تقدم ذكر نسخة هذا السجل عند ذكر الخراج من هذا الكتاب.

وقرىء منشور بالجامع الأزهر وجامع عمرو بمصر بالمنع مما يعتمد في الدواوين من قبول الزيادة وفسخ عقود الضمانات، وإعفاء الكافة من المعاملين والضماناء من قبول الزيادة فيما يتصرفون فيه ما داموا قائمين بأقساطهم .

فيه تحول الخليفة الأمر إلى اللؤلؤة^(٤٦) وأقام فيها مدة النيل على الحكم الأول، وأزال ما أحدث من البناء بالقرب منها، وتحول معه الوزير المأمون بن البطائحي والشيخ أبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وحاجب الحجاب حسام الملك، ورتبت الرهجية والحرس، وأطلق لهم ما يقوم بهم، وصار الخليفة يمضي في السرايب من اللؤلؤة إلى القصر في يومي السلام، فلا يراه أحد سوى الأستاذين والخواص، ويحضر الوزير على عادته ويعمل الأسمطة، ويحضر الناس على العادة، ويركب في يومي الثلاثاء والسبت إلى المنتزهات.

فيه تقدم الوزير بتجديد المشاهد التسعة التي بين القرافة والجبل^(٤٧)

وكانت العادة جارئة من الأيام الأفضلية في آخر جمادى من كل سنة أن تغلق جميع قاعات الخمارين بالقاهرة ومصر وتختتم، ويحذر من بيع الخمر، فأى الوزير أن يكون ذلك في سائر الأعمال، فكتب إلى ولاة الأعمال وأن ينادى أن من تعرض لبيع شيء من هذين الصنفين أو لشرائهما سرا وجهرا فقد عرض نفسه لتلافها وبرئت الذمة من هلاكها (٤٨)

لما كان مستهل رجب عملت الأسمطة على العادة فقال الأمر لوزيره المأمون: قد أعدت لدولتي بهجتها، وقد أخذت الأيام نصيبها من ذلك، وبقيت الليالي وقد كان بها مواسم وقد زال حكمها، وهي ليالي الوقود الأربع^(٤٩). فامثل الأمر، وعملت.

واستجد في كل ليلة على الاستمرار برسم الخاصين: الأمري، والمأموني، قنطار سكر ومثقالا مسك، وديناران برسم المؤن ليعمل خشكنان، وبستندود^(٥٠) في قعاب وسلاسل صفصاف، وكان يسمى بالقبعة، ويحمل ثلثا ذلك إلى القصر والثلث إلى دار المأمون.

ووصلت كسوة الشتاء، فكانت أربعة آلاف قطعة وثلاثمائة وخمس قطع، ووصلت كسوة عيد الفطر وتشتمل على نحو عشرين ألف دينار، وكان عندهم الموسم الكبير، ويسمى بعيد الحلل لأن الحلل فيه تعم الجميع، وفي غيره للأعيان خاصة.

وعمل الختم في آخر شهر رمضان بالقصر، وعبيء سباط الفطرة في مجلس الملك بقاعة الذهب من القصر، فكان سباطا جميعه من حلوة الموسم، وصلى الخليفة الأمر بالناس صلاة العيد في المصلى ظاهر باب النصر وخطب، وكان ذلك قد بطل في الأيام الجيوشية والأفضلية.

وكان الذي أنفق في أسمطة شهر رمضان عن تسع وعشرين ليلة،

خارجا عن التوسعة المطلقة أصنافا برسم الخليفة وجهاته، وخارجا عن العطية، وخارجا عن رسم القراء والمسحرين وخارجا عن الأشربة والحلاوات من العين ستة عشر ألف دينار وأربعمائة وستة وثلاثين دينارا. وجملة ما قدر على المنفق في شهر رمضان، بما تقدم شرحه، والتوسعة والصدقات والفطرة وكسوة الغرة والعيد، ومائة ألف دينار عينا، وضرب في خميس العدس ألف دينار عملت عشرين ألف خروبة، وكانت العادة أن يضرب في كل سنة خمسمائة دينارا^(٥١).

وفي شوال هذا وصل شاور من أسر الفرنج، وكان مأسورا من الأيام الأفضلية وطالت مدة أسره، وبذلت عشيرته في افتكاكه جملة كبيرة، فلم يقبل منهم، وطلب فيه أسير من الفرنج، فلم يجبهم الأفضل إليه لأنه كان لا يطلق أسيرا أبدا، فلما ولي المأمون الوزارة وميز ديني، مقدم العربان الجذاميين، وقبيلته - وشاور من بني سعد، فخذ من جذام - فوقف مجير، أخو شاور، وإخوته للمأمون، وما زالوا به حتى أطلق الأسرى فأطلق الفرنج شاور في شوال، وأثبت في الطائفة المأمونية، وكان هذا ابتداء حديث شاور

وفيه تنبه ذكر الطائفة النزارية، وقرر بين يدي الخليفة بأن يسير رسولا إلى صاحب الموت بعد أن جمعت فقهاء الإسماعيلية والإمامية، وهم: ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، وجميع دعاة الإسماعيلية، وأبو محمد بن آدم متولي دار العلم^(٥٢)، وأبو الثريا بن مختار فقيه الإسماعيلية، ورفيقه أبو الفخر، والشريف ابن عقيل، وشيوخ الشرفاء، وقاضي القضاة، وأولاد المستنصر، وجماعة بني عم الخليفة، وأبو الحسن بن أبي أسامة كاتب الدست، وجماعة من الأمراء، وقال لهم المأمون: ما لكم من الحججة في الرد على هؤلاء الخارجين على الإسماعيلية؟ فقال كل منهم: لم يكن لنزار إمامة، ومن اعتقد هذا خرج عن المذهب وحل ووجب قتله، وإن كان والده المستنصر نعته ولي عهد المسلمين

ونعت إخوته، منهم أبو القاسم أحمد بولي عهد المؤمنين، وكل مؤمن مسلم وما كل مسلم مؤمن، وقد نطق بذلك الكتاب العزيز (٥٣).

وذكر حسين بن محمد الموصلبي أن اليازوري لم يزل يسأل المستنصر إلى أن كتب اسمه على الدينار وهو ما مثاله:
ضربت في دولمة آل الهدى

من آل طه وآل ياسين
مستنصر بالله جل اسمه
وعبيده الناصر للدين

في سنة كذا، ولم يقم بعد ذلك إلا دون الشهر، فاستعيدت وأمر ألا تسطر.

ودليل يعضد ذلك أنه لما جرت تلك الشدائد على الإمام المستنصر وسير أولاده، وهم: الأمير عبد الله إلى عكا إلى أمير الجيوش، ثم اتبعه بالأمير أبي علي والأمير أبي القاسم، والد الحافظ، إلى عسقلان، وسير نزارا إلى ثغر دمياط سير الأعلى إلى الأعلى ولم يسمح بسفر الإمام المستعلي ولا خروجه من القصر لما أهله له من الخلافة، ولا أبعدته خوفا من حضور المنية، فلما وصل أمير الجيوش إلى البلاد بعد تهيئتها وتأمينها، ورغب الإمام المستنصر في عقد نكاح ولده الإمام المستعلي على ابنته، أخت الأفضل، وعقد النكاح بنفسه، ساء في كتاب الصداق مولى عهد أمير المؤمنين، وعلم عليه بخطه، ثم عند وفاة المستنصر بايع نزار الإمام المستعلي بما شاهده كل حاضر، وبما ذكرته السيدة ابنة الإمام الظاهر شقيقة الإمام المستنصر في صحة إمامته، فكتب الكتاب بجميع ذلك إلى صاحب ألموت مضمنا بشهادة الجماعة بذلك.

ثم وصل في أثناء ذلك كتب من خواص الدولة تتضمن أن القوم قد قويت شوكتهم، واشتدت في البلاد طمعتهم، وأنهم يسرون المال مع

التجار إلى قوم يخبرون أسماءهم، وأنهم سيروا ثلاثة آلاف دينار برسم النجوى^(٥٢) وبرسم المؤمنين الذين ينزل الرسل عندهم ويختفون في محلهم، فتقدم المأمون بالفحص عنهم والاحتراز التام على الأمر في ركوبه ومنتزهاته، وحفظ الدور غيرها.

ولم يزل البحث التام في طلبهم إلى أن وجدوا عند قوم من أهل البلد، فاعترفوا بأن خمسة منهم هم الرسل الواصلين بنالمال من البلاد الشرقية، فراموا قتلهم، فأشار المأمون بتركهم، وأحضر الشيخ أبو القاسم بن الصيرفي، وأمر بكتب سجل يقرأ على رؤوس الأشهاد وتفرغ منه النسخ إلى البلاد بمعنى ما ذكر من نفي نزار عن الإمامة وشهر الجماعة المقبوض عليهم وصلبوا، وامتنع الأمر من قبض الألفي دينار الواصلة للنجوى وأمر بحملها إلى بيت المال، وأن تنفق في السودان عبيد الشراء خاصة، وأمر بأن يحضر من بيت المال نظير المبلغ، وتقدم بأن يصاغ قنديلين ذهباً وقنديلين فضة، وأن يحمل قنديلان، ذهباً وفضة، إلى مشهد الحسين بعسقلان، وقنديلان كذلك إلى التربة، وأطلق المأمون من ماله ألفي دينار، وتقدم بأن يصاغ بها قنديل ذهب وسلسلة فضة برسمه على قياس أحضر من عسقلان، وأن يصاغ على المصحف الذي بخط علي بن أبي طالب رضي الله عنه بمصر من فوق الفضة ذهب

وأطلق من حاصل الصناديق التي تشتمل على مال النجاوي برسم الصدقات عشرة آلاف درهم تفرق في الجوامع الثلاثة الأزهر بالقاهرة، والعتيق بمصر، وجامع القرافة^(٥٣) وإلى فقراء المؤمنين وعلى أرباب القصور، وأطلق من الأهراء ألفاً إردب قمحا وتصدق عدة من الجهات بجملة كثيرة. واشترت عدة جوار من الحجر^(٥٤) وكتب عتقهن وأطلق سراحهن .

قال ابن ميسر، وقد ذكر هذا المجلس: وقد كانت أخت نزار في قاعة

بجانب الإيوان من القصر، وعلى الباب ستر، وعلى الستر إخوتها وبنو عمها وكبار الأستاذين. فلما جرى هذا الفصل قام المأمون من مكانه ووقف بإزاء الستر وقال: من وراء هذا الستر؟ فعرف بها إخوتها وبنو عمها، وأنه ليس غيرها وراء الستر، فلما تحقق الحاضرون ذلك قالت: اشهدوا يا جماعة الحاضرين، وبلغوا عني جماعة المسلمين بأن أخي شقيقي نزارا لم يكن له إمامة، وأني بريئة من إمامته جاحدة لها لاعة لمن يعتقدوها، لما علمته من والدي وسمعتة من والدي، لما أمر المستنصر بمضيها هي والجهة المعظمة والدة عبد الله أخي إلى المنظرتين اللتين على القناطر المعروفتين بالحولا والبرياب للنزهة أيام النيل جرى بينهما مشاجرة في ولديهما، فأحضرهما المستنصر بين يديه وأنكر عليهما، وقال: ما يصل أحد من ولديكما إلى الأمر، صاحبه معروف في وقته، وشاهدت والدي المستنصر في مرضته التي توفي فيها وقد أحضر المستعلي وأخذه معه في فراشه، وقبل بين عينيه، وأسر إليه طويلا وتدمعت عيناه، وفي اليوم الذي انتقل والدي في ليلته استدعى عمتي بنت الظاهر فأسر إليها من بيننا، ومد يده إليها فقبلها وعاهدها، وأشهد الله تعالى معلنا ومظهرا، فلما انتقل في تلك الليلة حضر صبيحته الأفضل ومعه الداعي والأمراء والأجناد، ووقف بظاهر المقرمة، ثم جلس وكلهم قيام، وأخذ في التعزية، ثم قال: يا مولاتنا من ارتضاه للخلافة؟ فقالت: هي أمانة قد عاهدني عليها، وأوصاني بأن الخليفة من بعده ولده أبو القاسم أحمد، فحضر وبايعته عمتي، وبايعه أخوه الأكبر عبد الله فأشار الأفضل إلى نزار فبايعه، وأمر الأفضل بالتوكيل على نزار وتأخيره، فأخر إلى مكان لا يصلح له، واستدعى الأفضل الداعي وأمره بأخذ البيعة من نفسه ومن الموالي والأستاذين، وسألت عمتي الأفضل في نزار فرفع عنه التوكيل عليه بعد أن كلمه بكلام فيه غلظة، ووالله ما مضى أخي نزار إلى ناصر الدولة أفتكين بالاسكندرية لطلب إمامة ولا لإدعاء حق، ولكن طالبا لزوال الأفضل وإبطال أمره لما فعل معه، والله يلعن من يخالف ظاهره باطنه، فشكرها الناس على ذلك.

وكان سبب حضور أخت نزار في هذا المجلس أن المأمون قال للأمر: قد كشفت الغطاء وفعلت ما لا يقدر أحد على فعله، وأما القصر فما لي فيه حيلة، ولوح أن أخت نزار وأولاده لا يمكنني كشف أمرهم، فلما بلغ أخت نزار ذلك حضرت إلى الخليفة الأمر لتبريء نفسها، ورغبت أن تخرج للناس لتقول ما سمعته من والدها وشاهدته ليكون قولها حجة على من يدعي لأخيها ما ليس له، فاستحسن الأمر ذلك منها وأحضر المأمون وأخاه شقيقه أبا الفضل جعفر بن المستعلي، واتفقوا على يوم يجتمعون فيه، فلما كان في شوال عمل المجلس المذكور.

وأما النزارية فإنها تقول: إن المستنصر مات والأفضل صاحب الأمر والمستحوذ على المملكة، والجند جنده، وغلما ن أييه لا يعرفون سواه، وكان نزارا، لما يرى من غلبة الأفضل على الدولة، يتكلم بما يبلغه، فينكره، فلما مات المستنصر والأفضل متخوف من شر نزار أقام أحمد^(٥٥) المستعلي، لأنه زوج أخته ولأنه صغير.

وفيها أراد الأمر أن يحضر إلى دار الملك في يوم النوروز الكائن في جمادى الآخرة، ويركب إليها في المراكب على ما كان عليه الأفضل، فمنعه المأمون من ذلك وقال: يا مولانا، الأفضل لا يجري مجرى أمير المؤمنين، وحمل إليه من الثياب الفاخرة برسم جهاته ماله قيمة جليلة^(٥٦)

وفي شوال بلغ المأمون أن جزيرة قويسنا^(٥٧) ومنية زفتي^(٥٨) ليس فيهما جامع، فتقدم إلى بعض خواصه وخلع عليه، فسار وبنى جامعا على شاطئ النيل بمنية زفتي، وقرر فيه خطيبا وإماما ومؤذنين، وفرش، وأطلق برسمه نظير ما للجوامع.

وفيه وصل الفقيه أبو بكر محمد بن محمد الفهري الطرطوشي من الإسكندرية بالكتاب الذي حمله: «سراج الملوك»، فأكرمه وأمر بإنزاله في

المجلس المهياً للأخوة، وتقدم برفع أدوية^(٦٠) الكتاب وأوطئة الحساب وسلام الأمراء، وعمل السباط، وسارع إلى البادهنج^(٦١)، واستدعى بالفقيه، فلما شاهده وقف، ونزل عن المرتبة، وجلس بين يديه، ثم انصرف، ومعه أخو المأمون، إلى مكان أعد له، وحمل إليه ما يحتاج له وأمر مشارف الجوالي^(٦٢) أن يحمل له في كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب، فامتنع الفقيه وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين كانا له في الأيام الأفضلية. وصار المأمون يستدعيه في يومي راحته، ويبالغ في كرامته، ويقضي شفاعاته.

وكان السبب في حضوره أنه تكلم في الأيام الأفضلية في أمر المواريث وما يأخذه أمناء الحكم من أموال الأيتام، وهو ربع العشر، وأمر توريث الابنة النصف فلم يقبل ذلك، ففاوض المأمون فيه وقال: هذه قضية وجدتها وما أحدثتها وهي تسمى بالمذهب الدارج، ويقال إن أمير الجيوش بدر هو الذي استجدها، وهو أن كل من مات يعمل في ميراثه على حكم مذهبه، وقد مر على ذلك سنون وصار أمرا مشروعاً، فكيف يجوز تغييره. فقال له الفقيه: إذا علمت ما يخلصك من الله غيرها فلك أجزها. فقال أنا نائب الخليفة، ومذهبه ومذهب جميع الشيعة من الزيدي، والإمامي والإسماعيلي أن الإرث جميعه للابنة خاصة بلا عصابة ولا بيت مال، ويتمسكون بأنه من كتاب الله كما يتمسك غيرهم. وأبو حنيفة، رحمة الله، موافقهم في القضية. فقال الفقيه: أنا مع موجود العصابة فلا بد من عدتها. فقال المأمون أنا لا أقدر أن أرد على الجماعة مذهبهم، والخليفة لا يرى به وينقضه على من أمر به، بل أرى بشفاعة الفقيه ان أراد الجميع على رأي الدولة فيرجع كل أحد على حكم رأيه في مذهبه فيما يخلصه من الله، ويبطل حكم بيت المال الذي لم يذكره الله في كتابه، ولا أمر به الرسول عليه السلام، فأجاب إلى ذلك. وأمر الوزير أن يكتب به وأن يكتب بتعويض أمناء الحكم عما يقتضونه من ربع العشر بتقرير جار لهم في كل شهر من مال الديوان على المواريث الحشرية^(٦٣).

وأخذ الفقيه في ذكر بقية حوائج أصحابه، وكتب منه توقيع فرغت منه نسخ، منها ما سير إلى الثغور وكبار الأعمال، وشملته العلامة الأمرية وبعدها العلامة المأمونية.. ونسخته بعد البسملة: « خرج أمر أمير المؤمنين بإنشاء هذا المنشور عندما طالعه السيد الأجل المأمون أمير الجيوش - ونعوته والدعاء - وهو الخالصة أفعاله في حياة المسلمين وذو المقاصد المصروفة إلى النظر في مصالح الدنيا والدين، والهمة الموقوفة على الترتي إلى درجات المتقين، والعزائم الكافلة بتسديد أحوال الكافة أجمعين، شيمة خصه الله بفضيلتها جيلة أسعد بجلالها وشريف مزيتها، والله سبحانه يجعل آراءه للتوفيق مقارنة وأنحاء للميامن كافلة ضامنة، من أمر الموارد وما أجراها عليه الحكام الدارجون بتغاير نظرهم، وقروره من تغيير عما كان يعهد بتغلب آرائهم، وما دخل عليها منهم من الفساد، والخروج بها عن المعهود المعتاد، وهو أن لكل دارج من الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين مذاهبهم واعتقاداتهم تحمل ما يترك من موجوده على حكم مذهبه في حياته والمشهور من اعتقاده إلى حين وفاته، فيخلص لحرم ذوي التشيع الوارثات جميع موروثهم، وهو المنهج القويم لقول الله سبحانه: « وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله إن الله بكل شيء عليم »^(٦٤). ويحمل من سواهن على مذهب مخلفيهم، ويشركهم بيت مال المسلمين في موجودهم، ويحمل إليه جزء من أموالهم التي أحلها الله لهم بعدهم، عدولا عن محجة الدولة، وخروجا عما جاء به العباد بعدموت الأئمة الذين نزل في بيتهم الكتاب والحكمة، فهم قراء القرآن، وموضحو غوامضه ومشكلاته بأوضح البيان، وإليهم سلم المؤمنون، وعلى هديهم وإرشادهم يعول الموقنون، فلم يرض أمير المؤمنين الاستمرار في ذلك على قاعدة واهية الأصول، بعيدة من التحقيق خالية من المحصول، ولم ير إلا العود فيه إلى عادة آبائه المطهرين، وأسلافه العلماء المهديين، صلوات الله عليهم أجمعين، وخرج أمره إلى السيد الأجل المأمون بالإيعاز إلى القاضي ثقة

الملك النائب في الحكم عنه، بتحذيره، والأمر له بتحذير جميع النواب في الأحكام بالمعزية القاهرة ومصر وسائر الأعمال، دانيها وقاصيها، قرييها ونائيها، من الاستمرار على تلك السنة المتجددة، ورفض تلك القوانين التي كانت معتمدة واستئناف العمل في ذلك بما يراه الأئمة المطهرة، وأسلافه الكرام البررة، وإعادة جميع مواريث الناس على اختلاف طبقاتهم ومذاهبهم إلى المعهود من رأي الدولة فيها، والإفراج عنها برمتها لمستحقيها، من غير اعتراض عليهم في قليلها ولا كثيرها، وأن يضربوا عما تقدم صفحا، ويطووا دونه كشحا، منذ تاريخ هذا التوقيع، وفيما يأتي بعده مستمرا غير مستدرك لما فات ومضى، ولا متعقب لما ذهب وانقضى».

« وليوعز الأجل المأمون، عضد الله به الدين، بامثال هذا المأمور، والاعتماد على مضمون هذا المسطور، وليحذر كلا من القضاة والنواب، والمستخدمين في الباب، وسائر الأعمال، من اعتراض موجود أحد ممن يسقط بالوفاة وله وارث بالغ رشيد، حاضر أو غائب، ذكرا كان أو أنثى، من سائر الناس على اختلاف الأديان بشيء من التأويلات، أو تعقب ورثته بنوع من أنواع التعقبات، إلا ما أوجبه بينهم المحاكمات والقوانين الشرعية الواجبات، نظرا إلى مصالح الكافة، ومدأ لجناح العاطفة عليهم والرافة، ومضاعفة للأنام وإبانة عن شريف القصد إليهم والاهتمام .

فأما من يموت حشريا ولا وارث له حاضر ولا غائب، فموجوده لبنت المال بأجمعه عن الأوضاع السليمة، والقوانين المعلومة القويمة، إلا ما يستحقه زوج إن كان له، أو دين عليه يثبت في جهته، وإن سقط متوفى وله وارث غائب فليحفظ الحكام والمستخدمون على تركته احتياطا حكما، وقانونا شرعيا مصونا من الاصطلام، محروسا من التفريط

والاحترام، فإن حضر وأثبت استحقاقه ذلك في مجلس الحكم بالباب، على الأوضاع الشرعية الخالصة من الشبه والارتباب، طولع بذلك ليخرج الأمر بتسليمه إليه والإشهاد بقبضه عليه.

كذلك نمي إلى حضرة أمير المؤمنين أن شهود الحكم بالباب وجميع الأعمال إذا شارف أحد منهم بيع شيء مما يجري في المواريث من الترك التي يتولاها الحكام يأخذون ربع العشر من ثمن المبيع، فيعود ذلك بالنقيصة في أموال الأيتام، والتعرض إلى الممنوع الحرام، اصطلاحا استمروا على فعله، واعتمادا لم يجر الأمر فيه على حكمه، فكره ذلك وأنكره، واستفظعه وأكبره، واقتضى حسن نظره في الفريقين، ما خرج به أمره من توفير مال الأيتام، وتعويض من يباشر ذلك من الشهود جاريا يقام لكل منهم من الإنعام، وأمر بوضع هذا الرسم وتعفيته، وإبطاله وحسم مادته، فليعتمد القاضي ثقة الملك ذلك بالباب، وليصدر الإعلام على سائر النواب، سلوكا لمحجة الدين، وعملا بأعمال الفائزين السعداء المتقين، بعد تلاوة هذا التوقيع في المسجدين الجامعين بالمعزية القاهرة المحروسة ومدينة مصر على رؤوس الأشهاد، ليتساوى في معرفة مضمونه كل قريب وبعيد وحاضر وباد، ولتفرغ منه النسخ إلى جميع النواب عنه في الأعمال، وليخلد في مجلس الحكم بعد ثبوته في ديواني المجلس والخاص الأمري، وحيث يثبت مثله إن شاء الله تعالى حجة مودعة في اليوم وما بعده.

وكتب لليلتين بقيتا في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسةائة.

ثم حضر الفقيه أبو بكر لوداع الوزير، وعرفه ما عزم عليه من إنشاء مسجد بظاهر الثغر على البحر، فكتب إلى ابن حديد بموافقة الفقيه على موضع يتخيره، وأن يبالغ في إتقانه وسرعة إنجازه، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة، وتوجه فبنى المسجد المذكور على باب البحر، وأما المسجد الذي بالمحجة فإن المؤمن عند مقامه بالثغر بناه.

وذكر للمأمون أيضا أن واحات البهنسا (٦٥) ليس بها جمعة تقام، فأمر ببناء جامع بها، ففرغ منه وأقيم فيه خطيب وإمام وقومة ومؤذنون، وأطلق لهم ما هي عادة أمثالهم.

وقيل إن الذي أنشأه المأمون في وزارته وفي أيام الأفضل أحد وأربعون مسجدا، مع ما أمر بتجديده، بعد وزاراته، بالقاهرة ومصر وأعمالها ما يناهز مائتي مسجد.

فيه بنيت دار ضرب بالقاهرة ودار وكالة (٦٦).

وفي ذي القعدة مات الأمير السعيد محمود بن ظفر، وإلي قوص. وركب المأمون إلى الجامع الأزهر، فلما كان وقت صلاة الصبح تقدم قاضي القضاة ثقة الملك أبو الفتح مسلم بن علي الراسعيني وصلى، فلما قرأ الفاتحة لحقه زعم شديد وارتعد، فلحن في الفاتحة، وقرأ: «والشمس وضحاها»، فلما قال: «ناقة الله وسقياها» أرتج عليه، فرد المؤمن حيدرة، أخو المأمون، عليه، فاشتد زعمه فكرر عليه الرد، فلم يهتد وقال: «وسقناها» بالنون. فقرأ المأمون بقية السورة وسجد الناس. وقام في الركعة الثانية وقد دهش فلم يفتح عليه بشيء، فقرأ المأمون الفاتحة «وقل هو الله أحد»، وقت وهو معه يلقنه. فلما انقضت الصلاة اشتد غضب المأمون وأمر متولي الباب بأن يختم المقرئون. وتخييل المقام وخرج من الجامع، فوكل بالقاضي من يمضي به إلى داره ويأمره بالمقام بها من غير تصرف حتى يحفظ القرآن، وقرر له راتبا فيما بعد، ولزم داره.

وأنفذ للوقت إلى القاضي أبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، من قضاة الغربية، فأحضره وخلع عليه في القصر بذلة مذهبة، وسلم به على الخليفة، وسلم إليه السجل في لفافة مذهبة بنيابته في الحكم العزيز، والخطابة، والصلاة وديوان الأعباس ودورالضرب بسائر أعمال المملكة،

ونعت فيه بالقاضي جلال الملك تاج الأحكام، فقبله ووضعه على رأسه. وتلى على منابر القاهرة ومصر.

وكان يحضر في يومي الاثنين، والخميس إلى مجلس المظالم بين يدي المأمون، ويستعرض القصص ويناقش فيها، ويباحث مباحثة الفقهاء العلماء، فزاد المأمون في إكرامه، ورد إليه وكالة الخليفة، وكتبت له الوكالة، وشرف بالخلع.

وتولى قوص الأمير مؤيد الملك وخلع عليه، وأمر أن يبني بقوص دار ضرب، وجهاز معه مهندسين وضرايين وسكك العين والورق، وعشرين ألف دينار وعشرين ألف درهم فضة، فضربت هناك دنانير ودراهم، وصار كل ما يصل من اليمن والحجاز من الدنانير العذنية وغيرها يضرب بها.

وصار ما يضرب باسم الأمر في ستة مواضع: القاهرة، ومصر، وقوص، وعسقلان، وصور، والإسكندرية.

وقرر للشيخ أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه بن يوسف، الإسرائيلي الأصل، لما قدم من الأندلس وصار ضيف الدولة، جار وكسوة شتوية وعيدية ورسوم^(٦٧) وأقطع دارا بالقاهرة، وكتب له منشورا نسخته بعد البسملة:

« ولما كان من أشرف ما طرزت السيرة بقدره، وأنفس ما وشحت الدولة بجميل أثره، تخليد الفضائل وإبداء ذكرها، وإظهار المعارف وإيضاح سرها، لا سيما صناعة الطب التي هي غاية الجدوى والنفعة، وورود الخبر بأنها قرينة إلى الشرع. لقوله صلى الله عليه وسلم: (العلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان) خرج أمر سيدنا ومولانا لما يؤثره بعلو

همته من إنماء العلوم وإشهارها، واختصاص الدولة الفاطمية بإحياء الفضائل وتجديد آثارها، ليبقى جمال ذلك شاهدا لها على مر الأيام، متسقا بما أفشاه لها من المآثر الجمّة والمفاخر الجسام، لشيخنا أبي جعفر يوسف بن أحمد بن حسديه، أيده الله، لصرف رعايته إلى شرح كتب أبقراط التي هي أشرف كتب الطب وأوفاهها، وأكثرها إغماضا وأبقاها، وإلى التصنيف في غير ذلك من أنحاء العلوم، مما يكون منسوبا إلى الأوامر العالية، ورسم التوفّر على ذلك والانتصاب له، وحمل ما يكمل أولا أولا إلى خزائن الكتب، وإقراء جميع من يحضر إليه من أهل هذه الصناعة، وعرض من يدعيها واستشفافه فيما يعانیه، فمن كملت صناعته فليجره على رسمه، ومن كان مقصرا فليستنهضه، واعتمدنا عليه في ذلك لكونه مميزا في البراعة في العلوم متصرفا في فنونها، مقدما في بسطها وإظهار مكنونها، ولأنه يبلغ الغرض المقصود في شرح هذه الكتب ويوفي عليه، ويسلك أوضح السبل وأسدها إليه، وفي جميع ما شرع له، فليشرع في ذلك مستعينا بالله، منفسح الأمل بإنهاضنا له، وجميل رأينا فيه، بعد ثبوته في الدواوين إن شاء الله تعالى.

وكتب في ذي القعدة سنة ست عشرة وخمسمائة فانتصب لطلبي علم الطب، وأقبل أطباء البلدين إليه، واجتمع في أيدي الناس من أماليه كثير، وجعل له يومين في الجمعة يشتغل فيهما، ويتوفّر في بقية الأسبوع على التصنيف، وحمل ذلك إلى الخزائن، واستخدم كاتبين لتبييض ما يؤلفه.

ولما أهل ذو الحجة جرى الحال في الهناء ومدائح الشعراء في القصر بين يدي الخليفة وبالدار المأمونية على الحال المستقرة، واستقبله المأمون بالصيام، وأخرج من ماله ما زاد عن المستقر في كل عام، برسم الأطفال من الفقراء والأيتام، من أهل البلدين وغيرهم، ولم يتعرض لطلب ذلك

من المميزين بحكم ما يعملونه من السنين المتقدمة. وما ابتكره ولم يسبقه إليه أحد استعمل ميقاظ حرير فيه ثلاث جلاجل، وفتح باب طاقة في الروشن من سور داره، فصار إذا مضى شطر الليل وانقطع المشي طرحت السلسلة ودي الميقاظ من الطاق، وعلى هذا المكان جماعة مبيتون بحقه من المغاربة، فمن حضر من الرجال والنساء متظلمًا شد رقعته في الميقاظ بيده ويحركه بعد أن يقف من حضره على مضمون الرقعة، فإن كانت مرافعة لم يمكنه من رفعها، وإن كانت ظلامه مكنوه من ذلك ويعوق صاحبها إلى أن يخرج الجواب.

وكان القصد بعمل ذلك أنه من حدث به ضرر من أهل الست، أو كانت امرأة من غير ذات البروز ولا تحب أن تظهر، أو كانت مظلمة في الليل تتعجل مضرتها قبل النهار فلتأت لهذا الميقاظ.

وحضرت كسوة عيد النحر، وفرقت الرسوم على من جرت عادته بها، خارجا عما أمر به من تفرقة العين المختص بهذا العيد وأضحيته، فكان منها سبعة عشر ألفا وستمائة دينار برسم القصور جميعها، وجملة ما نحر وذبح الخليفة خاصة، دون الوزير، في ثلاثة أيام النحر ألف وتسعمائة وستة وأربعون رأسا، منها نوق مائة وثلاثة عشر، وبقر ثمانية عشر رأسا، وجاموس خمسة عشر، والبقية كباش، ومبلغ المصروف على أسمطة الثلاثة أيام، خارجا عن أسمطة الوزير، ألف وثلاثمائة وستة وعشرون دينارا، ومن السكر ثمانية وأربعون دينارا.

وعمل عيد الغدير^(٦٨) على رسمه. وركب الخليفة إلى قليب، ونزل بالبستان العزيزي لمشاهدة قصر الورود^(٦٩) على العادة المستقرة والسنة المتقدمة، وفرقت الصدقات في مسافة الطريق، وضربت الخيم، وقدمت الأسمطة. ثم عاد في آخر النهار إلى قصره.

في هذه السنة سير المأمون وحشي بن طلائع إلى صور، فقبض على مسعود بن سلا، واليها لمخالفته، وأحضره.

فيها تجهز الأسطول وسارت المراكب، فيها خمسة عشر ألف أردب قمحا وأقوات كثيرة، إلى صور، فلما وصل خرج إليه سيف الدولة مسعود واليها من جهة طغتكين، فلما سلم عليهم سألوه النزول إليهم، فلما حصل في المراكب اعتقل، وأقلع الأسطول به إلى مصر، فأكرم وأنزل في دار، وأطلق له ما يحتاج إليه، وسبب القبض عليه كثرة شكوى أهل صور منه.

وفيهما وصل البدل من ثغر عسقلان على العادة.

سنة سبع عشرة وخمسةائة

في غرتها عمل برسم أول العام (٧٠)، ثم حزن عاشوراء (٧١)، فالمولد الآمري على ما جرى به الرسم. وخلع على المؤمن سلطان الملوك نظام الدين أبي تراب حيدرة، أخي الوزير المأمون، بدلة مذهبة خاص من لباس الخليفة، وطوق ذهب، وسيف ذهب بغير منطقة، وشرف بتقبيل يد الخليفة في مجلسه، وسلم إليه تقليد في لفافة مذهبة بولاية الإسكندرية والأعمال البحرية، وشدت له الأعلام القصب والفضة والعماريات (٧٢)، وحمل بين يديه الأكياس برسم التفرقة. وحجبه الأمراء والأستاذون، وقبل أبواب القصر، ومضى إلى داره، وأطلق له من ارتفاع ثغر الإسكندرية على الولايتين في الشهر خمسمائة دينار.

وثار اللواتيون وغيرهم بالصعيد الأدنى، وقتلوا زين الدولة علي بن أبي تراب الوالي، وعاثوا في البلاد وأفسدوا، فخرج إليهم المؤمن أخو الوزير وتاج الدولة بهرام زمان (٧٣) الأزمن في عدة وافرة، فانهزموا بين يديه، واحاط بما خلفوه من المواشي.

وبلغه نزول مراكب الروم والبنادقة، وهي بضع وعشرون مركبا، على الإسكندرية، فبادر إليها، فلما شاهده العدو أقبل، فأخذ منهم عدة قطع، وقدم على المؤمن مشايخ اللواتيين والتزموا بحمل ثلاثين ألف دينار في نظير جنائتهم، وأن يعفى عنهم، فأجابهم الوزير الى ذلك، وحمل المال مع الرهائن.

وكان المؤمن لما قدم إلى الثغر خيم بظاهره، وقبل من القاضي مكين الدولة أبي طالب أحمد بن الحسن بن حديد بن أحمد بن محمد بن حمدون، المعروف بابن حديد متولي الأحكام والإشراف بها، ما حمله إليه على حكم الضيافة ثلاثة أيام، ثم أمره بإيقافها بعد ذلك إلا ما يقتضيه رسمه خاصة، وأظهر كتاب أخيه الوزير بأن الغلال بالثغر وأعمال البحيرة كثيرة، وكذلك الأغنام مع قطيعة العربان، فمهما دعت الحاجة إليه برسم أسمطة العساكر يحمل ويساق، وتكتب به الوصول على ما جرت به العادة، وأمره ألا يقبل من أحد من التجار ضيافة ولاهدية .

وأظهر كتابا آخر إلى مكين الدولة بأن يطلق في كل يوم من ارتفاع الثغر من العين ما يتناع به جميع ما يحتاج إليه من الأصناف برسم الأسمطة للعساكر، وكان يستخدم عليها من يراه من الشهود.

وكان تجار الثغر قد حملوا ثلاثة آلاف دينار فأبى المؤمن من قبولها، وأمر بإعادتها إلى أربابها، فأخذ مكين الدولة يتلطف في أن يكون عوض ذلك طرفا وطيبا، فأقسم أنه لا يقبل منهم شيئا، واستمرت الأسمطة في كل يوم، ولم يقبل لأحد هدية.

واتفق أن المؤمن وصف له الطيب دهن شمع والقاضي مكين الدولة حاضر، فأمر في الحال بعض غلمانه بالمضي إلى داره ليحضّر الدهن المذكور، فلم يكن أكثر من مسافة الطريق حتى أحضر صرا مختوما فك

عنه، فوجد فيه منديل لطيف مجاوم مذهب^(٧٤) على مذاق بلور فيه ثلاث بيوت كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصعة بياقوت وجوهر، بيت دهن بمسك، وبيت دهن بكافور، وبيت دهن بغير طيب، ولم يسكن فيه شيء مصنوع لوقته. فلما رآه المؤمن والحاضرون (تعجبوا) من علو همة القاضي وجليل رئاسته وسعة نفسه، فحلف بالحرام إن عاد إلى ملكه، فقال المؤمن، قد قبلته منك ليس لحاجة إليه، ولا نظر في قيمته، بل لإظهار هذه الهمة وإذاعتها، وذكر أن قيمة المذاق المذكور خمسمائة دينار.

وخلع المؤمن على القاضي بذلة مذهبة بطيلسان مقور وثياب حرير، وقدم له دابة بمركب حلي ثقيل، ثم خلع عليه في اليوم الثاني والثالث كذلك، وخلع على أخيه حلتين مكللتين مذهبتين ورزمة فيها شقق حريرية مما يختص بالنساء، وأنعم على كل من حواشيه وأصحابه.

وعاد إلى القاهرة، فمدحه عدة من الشعراء.

وورد رسل ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وأق سنقر، صاحب حلب، بالحث على غزو الفرنج، وكبيرهم علي بن حامد، الحاجب، فلما وصلا باب الفتوح ترجلا وقبلاه، ومشيا إلى أبواب القصور ففعلا مثل ذلك، وأوقفا عند باب البحر^(٧٥) قدر ما جلس الخليفة، فجهز عسكر في البر مقدمه حسام الملك النزي، وسار الأسطول في أربعين شينيا فوصلوا إلى عسقلان، وخرجت للغارات وعادت بالغنيمة.

فاجتمعت طوائف الفرنج، وكتب إلى حسام الملك أن يقيم بالثغر، ويلقى الفرنج عليه ولا يتعداه، فخالف ذلك، وتوجه مخفياً بغير ثقل ونزل على يافا فقتل وأسر، فعندما قصده الفرنج رحل وهم يتبعونه حتى وافى بينا فلقاهم هناك، فانهزم العسكر من غير قتال، وقتل الراجل بأسره، وعاد من بقي مهزوما إلى عسقلان.

ووصل الخبر بذلك فأهم الأمر والمأمون، واشتد الخنق على حسام الملك لسوء تدبيره قال أمره بعد أمور إلى أن قتل.

فيها خرج أمر المأمون إلى الوالين بمصر والقاهرة بإحضار عرفاء السقائين وإلزام المتعيشين منهم بالقاهرة بحضورهم متى دعت الحاجة إليهم ليلا ونهارا، بالطواري والمساحي، وأن يقوموا لهم بالعشاء من أموالها.

وعمل بعض التجار لابنته فرحا في إحدى الأدر المعروفة بالأفراح، فتسور ملاك الدار على النساء وأشرفوا عليهم والعروس في المجلى، فأنكر عليهم ذلك، فأساءوا وأفسدوا على الرجل ما صنعه، فخرج مستغيثا فخشوا عاقبة فعلهم، فما زالوا به حتى كف عن شكواهم. فلما حضر والي مصر بالمطالعة في الصباح إلى الوزير على عادته، قيل له: لم لا ذكرت في مطالعتك ما جرى للتاجر الذي عمل فرح ابنته؟ فاعتذر بأن المرسوم له ألا يذكر ما يخرج عن السلامة والعافية ولم يتصل به ماجرى في الفرح. فأسمعه ما أمضه، وبين عجزه وتقصيره، وقال له: والسلامة والعافية أن يخرج بالرجل ويهان وتنتهك حرمة ولا يجد ناصرا؟!.

فرسم بإحضار شاهدين ومهندسين، وتوجهوا إلى سائر الدور المختصة بالأفراح وإحضار ملاكها، فمن رغب في استمرار ملكه على حاله فليزل التطرق إليه ويكتب عليه حجة بالقسامة بذلك، ومن لم يرغب فلتؤخذ عليه الحجة بألا يؤجر ملكه للأفراح ويتصرف فيه على ما يريد، فامثل ذلك.

وجرى الرسم في عمل المولد الكريم النبوي في ربيع الأول على العادة.

وكتب لجميع الأعمال، خلا قوص، وعسقلان، بمطالعة كل وال منهم

في مستهل كل شهر بمن حواه السجن والموجب لاعتقاله، ويبين كل منهم ذلك ويعتمد فيه الحق، وسبب ذلك أنه رفع إلى المأمون أن بعض الولاة يعتقل من لا يجب عليه اعتقال، لطلب رشوة، فتطول مدته.

وفيه قرر برسم رش مابين البلدين، مصر والقاهرة، في كل يوم من اليومين اللذين يركب فيهما الخليفة مما يصرف للسقائين دينار واحد، فاستمر ذلك يطلق لهم إلى الأيام الحافظة، وكان سبب إطلاق هذا القدر أنه رفع للوزير المأمون أن واليي القاهرة ومصر يأخذان جميع السقائين أرباب الجمال والدواب لرش مابين البلدين سخرة بغير أجرة.

وفي جمادى الآخرة أعيد ثغر صور إلى ظهير الدين طغتكين، صاحب دمشق، وكتب له بذلك، وفخم فيه وعظم، ونعت بسيف أمير المؤمنين، وجهزت إليه الخلعة، وهي بدلة طميم منديلها^(٧٦) طوله مائة ذراع شرب، فيه ثمانية وعشرون ذراعا مرقومة بذهب عراقي، وثوب طميم جميعه برقم ذهب عراقي، سلف المنديل والثوب ألف دينار، وثوب ديبقي وسطاني، وثوب سقلاطون^(٧٧) داري، وثوب عتايي، وشاشية ديبقي، ولفافة، وجميع ذلك في تحت مبطن عليه لفاقة ديبقي، وغير ذلك من الكساوى برسم نسائه وأصحابه، وجهز لأمين الدولة جمشتكين، صاحب صلخد، بدلة مذهبة ومنديلها، وعدة ثياب، وغيرها.

في شعبان وصلت الأساطيل بمن فيها سالمين، وقد غنموا شينيين من شواني الفرنج وبطسة كبرى، وعدة من النساء والرجال، وذكر للمأمون أن الأسرى المذكورين يؤخذ منهم في الفداء ما يزيد عن عشرين ألف دينار عينا، فقال: والله لا أبقى منهم أحدا، قد قتل لنا خمسمائة رجل يسوون مائة ألف، وقد أظفر الله بما يكون دية عنهم، لا يشاع عنا أنا بعنا الفرنج وربحنا أثمانهم عوضا عن رجالنا.

وركب الخليفة بما جرت به العادة، واصطفت العساكر بالعدد والأسلحة، وعاد، وخلع على الأمراء وعلى زمام الأسطول والرؤساء.

وحضرت الحجاب، المندوبين لقتل الفرنج، بأنهم لما شاهدوا الحال بذلوا في خلاص أنفسهم ثلاثين ألف دينار، وأنه يرجى منهم أكثر من ذلك، فكتب الجواب بالإنكار وإمضاء السيف فيهم، فقتل الرجال بأسرهم وقد اجتمع الناس وضجوا بالتهليل والتكبير عند قتلهم، فكان أمرا مهولا، وقد ذكر هذا اليوم عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في أسمطة شهر رمضان، والركوب إلى الجمع، وفي كسوة غرة شهر رمضان على العادة.

وفيه سير هلال الدولة سوارا رسولا إلى حرة اليمن^(٧٨) وصحبته برسمها من التشريف مما لبسه الخليفة ومازج عرقه من الحلل المذهبات والملاءات الشرب المذهبة والشقق النفوسي والمغربي المقصور والإسكندراني المطرز جملة كثيرة في نخوت مدهونة مبطنة، وسلال مملوءة من لحم الناقة التي نحرت بالمصلى، واثنى عشر مجلسا^(٧٩) من المساطير التي تقرأ كل خميس وعليها علامة الخليفة، وكثير من النحاس القضيب والمرجان، وكتب إليها كتابا في قطع الثلثين أوله:

«من عبد الله ووليه المنصور أبي على الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين، ابن الإمام المستعلي بالله أمير المؤمنين، صلى الله عليهما، إلى الحرة الملكة السيدة الرضية، الطاهرة الزكية، وحيدة الزمن، سيدة ملوك اليمن عدة الاسلام، خالصة الإمام، ذخيرة الدين، عصمة المسترشدين، كهف المستجيرين، ولية أمير المؤمنين، وكافلة أوليائه الميامين، أدام الله تمكينها ونعمتها، وأحسن توفيقها ومعونتها».

وفي آخره: «وأمر المؤمنين متطلع إلى علم أخبارك، ومعرفة أنبائك، فتواصلني بإنهاء المتجدد منها إن شاء الله، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»، ويطوى مدورا ويختتم بحريير وأشربة ذهب وعنبر عجين ويجعل في خريطة.

فيه قرىء بالجامع العتيق منشور، نسخته بعد التصدير:

«بأننا لم نزل منذ ناطت بنا الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، الأمور، وعولت على كفايتنا في سياسة الجمهور، وردت إلينا النظر فيما وراء سرير خلافتها، وفوضت إلى إيالتنا من مصالح دولتها، وعبيدها ورعيته، في محاسن الأفعال ناظرين، وعلى بسط العدل والإحسان على الكافة متوفرين، وبحسن توفيق الله تعالى لنا واثقين، وبمراشده الهادية مسترشدين، فلا ندع وجهها من دعوة البر إلا قصدناه، ولا باباً من أبواب الخير إلا ولجناه، ولا نعلم أمراً فيه قربى إلى الله سبحانه ونفع للرعية إلا أتينا، ولا شيئاً يعود بثواب الله وحسن الأحدثه إلا اعتمدناه، شيمة خصنا الله تعالى بميزتها، وسجية أسبغ علينا جلاليب يمنها وسعادتها، وعملا في ذلك بشريف آراء الحضرة المطهرة، صلوات الله عليها، وجميل سيرتها، واستمرارا على منهج الدولة الزاهرة، خلد الله ملكها، وكريم عاداتها، وذهابا في ذلك مع سجيتهما الحسنى، ونشرا لأرج ذكرها في الأبعد والأدنى، والله تعالى المسؤول أن يعيننا على مصالح الدنيا والدين، ويقضي لنا بالفوز المبين، ويصلح لنا وبنا كل فاسد، وينظم لنا عقود السعود والمحامد بمنه.

ولما كان أحسن ما تطرز به محاسن السير، وتناقل ذكره السنة البدو والحضر، وتجنني ثمرته في الدنيا والآخرة، وتحمده مغبته في العاجلة والآجلة، التقرب إلى الله تعالى في كل أوان، وابتغاء ثوابه في كل زمان، لاسيما شهر رمضان، الذي تزكوا فيه أفعال البر والصلاح، وتتضاعف فيه

الحسنات في الغدو والرواح، رأينا ماخرج به أمرنا من كتب هذا المنشور بمساحة كافة سكان الرباع السلطانية^(٨٠) بالقاهرة ومصر من الأدر والحمامات والحوانيت والمعاصر والأفرنة والطواحين والعرض، وجميع مايجري في الرباع خارجا من ربع الأقباس وربع المواريث المنصرف مستخرج ارتفاعها فيما يجري هذا المجرى من وجوه البر، بأجرة شهر رمضان من كل سنة، لاستقبال رمضان سنة سبع عشرة وخمسة مائة ومابعدھا، إحسانا يسير ذكره كل مسير، وتعظيما لحرمة هذا الشهر العظيم الخطير، الذي فضله الله على جميع الشهور، وأنزل فيه قرآنه المجيد، وفرض صيامه على أهل التوحيد، وحضهم فيه على الأفعال المزلفة لديه، ووعد من عمل فيه خيرا بمضاعفة الجزاء عليه، فليعتمد العمل بما تضمنه هذا المنشور، وحطيطة أجرة شهر رمضان عن جميع سكان الربع المذكور لاستقبال التاريخ المقدم منسوبا ذلك إلى القرب الصالحة والتجارة الرباحة، ويفسح في جميع الدواوين حجة بمودعه، وليخلد بالمسجد الجامع العتيق بمدينة مصر، منعا لمن يروم التأويل فيه، أو نقض شيء من وضعه، إن شاء الله .»

فلما قرىء هذا المنشور ضج العامة بالدعاء ونظم فيه عدة من الشعراء.

وجرى الرسم في وصول كسوة العيد، وهي العدة الكثيرة، وتفريقها على العادة، وعمل الختم في آخر الشهر بالقصر والجوامع والمساجد، وحصل الاهتمام بالعيد، وركب الخليفة إلى المصلى على العادة، وصلى بالناس صلاة العيد، وخطب، وحضر السباط.

وجرى الحال في يوم عاشوراء، وفي المولد الأمري، على المؤلف.

فيه كان المولد العيسوي، ففرق ماجرت به العادة من الحمامات

القاهرة والجامات السמיד، وقرابات الجلاب وطيافير الزلابية، والبوري، على أصحاب الرسوم، وعمل في شهر ربيع الأول المولد الكريم وفرق المال على الرسم.

وفيهما وصل رسول الأمير تاج الخلافة أبي منصور حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن معز بن باديس، صاحب المهديّة، نجبر بانحيازه للدولة، وأن رجار بن رجار صاحب صقلية تواصلت أذيته، وقد استعد لمحاربته، وسأل أن يسير لرجار يمنعه من ذلك، فسير إليه مصطنع الدولة علي بن أحمد بن زين الخند، فأصلح بينهما.

وفيهما نقل المأمون الرصد من الجبل المطل على راشدة إلى علو باب النصر بالقاهرة.

وفيهما توفي ولي الدولة أبو البركات بن عبد الحقيق داعي الدعاة، فاستقر عوضه أبو محمد حسن بن آدم، وكان يدعى بالقاضي لأبوته وسنه واشتهاره بالعلم، فبعث الأمر بأحكام الله إلى الوزير المأمون أن يستخدم أبا الفخر صالحا، فذكر المأمون أن أكثر المجالس التي كانت تعمل في أيام النعمان بخط أبيه، وأن أبا الفخر حدث السن ولا يائثل المذكور في العلم، وأضيف إليه الخطابة بالجامع الأزهر مع خزانة الكتب.

وورد الخبر بأن الفرنج افتدوا بغدوين رويس الملك بثمانين ألف دينار وثلاثين أسيرا من المسلمين، وكان صاحب حلب قد أسره في وقعة له مع الفرنج.

وعمل ماجرى به الرسم في مواسم السنة.

وفيهما جرت عمارة سور الإسكندرية.

وفيها حمل إلى عسقلان ثلاثة وعشرون ألفا وستائة وأحد وثلاثون إردبا من الغلال.

سنة ثمان عشرة وخمسة

فيها ملك الفرنج مدينة صور، واستمرت بأيديهم حتى زالت الدولة الفاطمية، وكان أخذهم إياها بعد محاصرتها مدة، وتناصر المأمون عن نجدتهم، وأعانهم طغتكين صاحب دمشق ووصل إلى بانياس وراسل الفرنج، فاستقر الأمر على أن الفرنج تستولي عليها بالأمان، فخرج أهلها بها خف حمله، وتفرقوا في البلاد، وكان تملكهم لها في يوم الاثنين ثالث عشري جمادى الآخرة.

وفيها أمر ببناء دار واسعة ليتفرج الناس فيها عند كسر خليج القاهرة بالكراء، وذلك أن الناس عند كسر الخليج^(٨١) كانوا يصنعون أخشابا متراكبة بعضها على بعض، يجلسون فوقها للتفرج يوم كسر الخليج، ولم يكن هناك غير دار الأمير أبي عبد الله محمد بن المستنصر ودار ابن معشر، ولم تزل هذه الأدر الثلاثة إلى أن احترقت في نوبة شاور.

فيها مات بألموت الحسن بن صباح كبير الاسماعيلية، وقد تقدم أنه ورد مصر في أيام المستنصر وسار إلى المشرق بدعوته، واستولى على قلعة ألموت واعتقد إمامه نزار بن المستنصر، وأنكر إمامة المستعلي وإمامة الأمر، وانتدب عدة لقتل الأفضل ابن أمير الجيوش فلما تقلد المأمون البطائحي وزارة الأمر بعد قتل الأفضل بلغه أن ابن صباح والباطنية فرحوا بموت الأفضل، وأنهم تطاولوا لقتل الأمر والمأمون وأنهم بعثوا طائفة لأصحابهم بمصر بأموال، فتقدم المأمون إلى والي عسقلان بصرفه

وإقامة غيره، وأمره بعرض أرباب الخدم بها، وألا يترك فيها إلا من هو معروف من أهل البلاد، وأكد عليه في الاجتهاد والكشف عن أحوال الواصلين من التجار وغيرهم، وأنه لا يثق بما يذكرونه، من أسمائهم وكناهم وبلادهم، بل يكشف من بعضهم عن بعض ويفرق بينهم ويبالغ في الاستقصاء، ومن يصل ممن لم تجر عاداته بالمجيء إلى البلاد فليعوقه بالشغل ويطالع بحاله ومامعه من البضائع، ولا يمكن جمالا من دخول مصر إلا أن يكون معروفا مترددا إلى البلاد، ولا يسير قافلة إلا بعد أن يتقدم كتابه إلى الديوان بعدة من فيها وأسمائهم وأسماء غلمانهم وأسماء الجمالين وذكر اصناف البضائع، ليقابل بها في مدينة بلييس وعند وصولهم إلى الباب، وأنه يكرم التجار ويكف الأذى والضرر عنهم.

ثم تقدم المأمون إلى والي مصر ووالي القاهرة بأن يصقعا البلدين شارعاً شارعاً وحارة حارة وزقاقا زقاقاً وخطا خطاً، ويكتب أسماء سكانها، ولا يمكن أحداً من النقلة من منزل إلى منزل حتى يستأذناه ويخرج أمره، بما يعتمد في ذلك، فمضيا لذلك، وحررا الأوراق بأسماء جميع سكان القاهرة ومصر وذكر خططهما، والتعريف بكنية كل واحد وشهرته وصناعته وبلده، ومن يصل إلى كل خط وحارة من الغرباء.

فلما عرف ذلك المأمون انتدب نساء من أهل الخبرة والمعرفة للدخول إلى جميع المساكن والاطلاع على أحوال ساكنيها الباطنية ومطالعتهم بجميع ما يشاهدونه فيها، فكانت أحوال كافة الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين أجناسهم من ساكني مصر والقاهرة تعرض عليه، ولا يكاد يخفى عنه منها شيء البتة، فامتنع لذلك الباطنية مما كانوا قد عزموا عليه من الفتك بالأمر والمأمون لكفهم عن دخول البلد

ثم إنه مع ذلك أركب العسكرية وفرقهم في جهات البلدين، وأمرهم بالقبض على جماعة عينهم، فقبض على جماعة كثيرة، منهم رجل كان

يقرىء أولاد الخليفة الأمر، ومنهم رسل كان ابن صباح قد سيرهم بهال لينفق على من بمصر ممن يرى رأيهم، فكان هذا معدودا من عظيم الحزم، وقوة التدبير، ومع ذلك كان له القصاد والجواسيس وأصحاب الخبر في كل قطر، فإذا خرج الباطني من قلاع الموت لاتزال أخباره ترد عليه شيئا بعد شيء منذ يخرج من مكانه حتى يرد بلبيس، فيسير إليه من يقبض عليه في مكانه الذي نزل فيه ويأتيه به فيقتله، وصار من أجل ذلك وبسببه يرد عليه أخبار كل جليل وحقير من سائر مملكته، حتى كان يرى ويسمع كل مايتفق في ليل أو نهار، وامتنع من الباطنية إلى أن مات رئيسهم الحسن بن صباح بعدما ملك من الشام جبل عاملة، وحصن العليقة والكهف، ومصيات، والخوابي، وحصن الأكمة، وقلعة العيدين، ثم امتدت مملكته بعد موته إلى حد شرقي أذربيجان، وبحر طبرستان، وجرجان.

سنة تسع عشرة وخمسةائة

فيها قبض الخليفة الأمر على وزيره المأمون في ليلة السبت لأربع خلون من شهر رمضان، وقبض على إخوته الخمسة مع ثلاثين رجلا من أهله وخواصه، واعتقله، فوجد له سبعون سرجا من ذهب مرصع، ومائتا صندوق مملوءة كسوة بدنه، ووجد لأخيه المؤمن أربعون سرجا بحلي ذهب وثلاثمائة صندوق فيها كسوة بدنه، ومائتا سلة ماين بلور محكم وصيني لايقدر على مثلها، ومائة برنية مملوءة كافور قنصوري، ومائة سفظ مملوءة عودا، ومن ملابس النساء مالايجد، حمل جميع ذلك إلى القصر، وصلبه مع إخوته في سنة اثنتين وعشرين.

ويقال إن سبب القبض عليه أنه بعث إلى الأمير جعفر بن المستعلي، أخي الأمر، بغريه بقتل أخيه الخليفة ووعده أنه يعتمد مكانه في الخلافة، فلما تقرر ذلك بينها بلغ الشيخ الأجل، أبا الحسن علي بن أبي أسامة،

كاتب الدست الخبر، وكان خصيصا بالأمر قريبا منه، وكان المأمون يؤذيه كثيرا، فبلغ الخليفة الحال، وبلغه أيضا أنه بعث نجيب الدولة أبا الحسن إلى اليمن، وأمره أن يضرب السكة ويكتب عليها: الإمام المختار محمد ابن نزار.

ويقال إنه سم مبضعا ودفعه لفصاد الخليفة، فأعلم الفصاد الخليفة بالمبضع.

ومولده في سنة ثمان وسبعين وأربعمائة، وقيل في سنة تسع، وكان من ذوي الآراء والمعرفة التامة بتدبير الدول، كريما واسع الصدر، سفاكا للدماء، شديد التحرز، كثير التطلع إلى أحوال الناس من الجند والعامه، فكثرت الواشون والسعاة بالناس في أيامه.

ويقال إن أباه كان من جواسيس الأفضل بالعراق، وأنه مات ولم يخلف شيئا، فتزوجت أمه وتركته فقيرا، فاتصل بإنسان يعلم البناء بمصر، ثم صار يحمل الأمتعة بالسوق بمصر، وأنه دخل مع الحماليين يوما إلى دار الأفضل فرآه خفيفا رشيقا حسن الحركة حلو الكلام، فأعجب به، فاستخدمه مع الفراشين بعد ما عرف بأنه ابن فلان، فلم يزل يتقدم عنده حتى كبرت منزلته، وعلت درجته.

وهذا ليس بصحيح فإنه من أخبار المشاركة، وقد تقدم أن أباه مات في زمن الأفضل بعد ما ترقت أحوال ولده، وأنه كان ممن يعد من أمثال أهل الدولة، ورثي بعدة قصائد، وتقدم أن المأمون كان ممن يخدم المستنصر، وأنه الذي لقبه بالمأمون، على أن المشاركة زادوا في التشنيع وذكروا أنه كان يرش الماء بين القصرين، وكل ذلك غير صحيح.

وكان المأمون شديد المهابة في النفوس، وعنده فطنة تامة، وتحرز،

ويبحث عن أخبار الناس وأحوالهم، حتى إنه لا يتحدث أحد من سكان القاهرة ومصر بحديث في ليل أو نهار إلا ويبيت خبره عند المأمون، ولا سيما أخبار الولاة وعما لهم، ومشيت في أيامه أحوال البلاد وعمرت، وساس الرعايا والأجناد أحسن سياسة، إلا أنه اتهم بأنه هو أقام أولئك الذين قتلوا الأفضل وأعدهم له وأمرهم بقتله ليجعل له بذلك يدا عند الخليفة الأمر، ولأنه كان يخاف أن يموت الأفضل فيلقى من الأمر ما يكرهه لأنه كان أكبر الناس منزلة عند الأفضل ومتحكما في جميع أموره، وكان مع ذلك محببا إلى الناس لكثرة ما يقضيه من حوائجهم ويتقرب به من الإحسان إليهم، ويأخذ نفسه بالتدبير الجيد والسيرة الحسنة، بحيث لو قدر موته في حياة الأفضل لزار الناس قبره تبركا به.

واتهم أيضا بأنه هو الذي قتل أولاد الأفضل، وأولاد أخيه الأوحد، وأولاد أخيه المظفر، وكانوا نحو مائة ذكر ما بين كبير وصغير، فقتلوا بأجمعهم، ولم يبق منهم سوى صغير نحيف يسمى أحمد أبا علي، ويلقب بكتيفات، فيقال إنه احتقره لما كان يرى فيه من العي والانقطاع، فكان منه ما يأتي خبره إن شاء الله تعالى.

واتهم أيضا بقتل الأمير حسام الملك أفتكين، صاحب الباب، في أيام الأفضل لتخوفه منه، وذلك أن حسام الملك دخل مرة على الأمر للسلام، فلما خرج قال الأمر: والله إنك لأمير حسن، فإنه كان جميلا تام القامة وفيه عجب وتيه، فبلغ ذلك المأمون فقامت قيامته وأخذ في العمل عليه حتى أخرجه في العساكر التي يقال إن عدتها عشرون ألفا، فكان من خبره على عسقلان مع الفرنج ما كان، وقتل من أصحابه يومئذ ما يزيد على عشرة آلاف، وعاد حسام الملك فبعثه إلى الإسكندرية ودس عليه من قتله.

قال ابن الطوير: ولما دفن الأفضل استعمل الأمر هذا الرجل، وكان

يخاطب بالقائد حين خدمة الأفضل في الوساطة دون الوزارة، ونعته بجلال الاسلام واستمر على ذلك، ثم كمل له الوزارة وخلع عليه خلعة الوزارة إلا الطيلسان المقور، فباشرها، وكان متيقظا قد حذق الأمور ودبرها من صحبة الأفضل وطول خدمته إياه، وكان بالدار التي بالسيوفيين بالقاهرة، وهي اليوم مدرسة للحنفية، وأخذ يصب على قال الأفضل مع الأمر، فصار يتقلب على الأمر في واحدة بعد واحدة من الجفاء الإقدام، والأمر يميل له ويحتمله، حتى استوحش كل منهما من الآخر.

وكان له أخ ينعت بالمؤمن أبي تراب حيدرة، فرأى من الرأي أن يولى أخاه جانبا عظيما من ديار مصر، ويجعل معه عسكر النجدة رداء إذا قصده الخليفة بضره، فإنه مادام أخوه يكون حاميا له، فيكون هو من داخل وأخوه من خارج، وجرد معه مائة فارس من شدة الأجناد وكبرائهم، وأضاف إليهم أمثالهم، مثل: علي بن السلار، وتاج الملوك قايماز، وسيف الملك الجمل، ودري الحرون، وحسام الملك بسيل، وكل واحد من هؤلاء جيش بمفرده، والخليفة يعلم ذلك ولايرده عليه، وزاد في معناه حتى قيل إن الخليفة اطلع على أنه ادعى الخلافة، وأنه من ولد نزار من جارية خرجت من القصر وهي حامل عندما خرج نزار إلى الإسكندرية فانزعج الخليفة لذلك، ثم إنه سير إلى اليمن الموفق في الدين علي بن نجيب الدولة^(٨٢) وكان من أهل الأدب فصيحاً داهي، ليحقق لنسبه هناك ويدعو الناس إلى بيعته، فلما قيل للأمر هذا، ماشك فيه، وأخذ يتحيل في الإيقاع به بعد عود أخيه من ولايات الاسكندرية والغربية والبحيرة والجزيرتين^(٨٣) والدقهلية والمرتاحي^(٨٤) فاخترق الأمر قضية يلتمسها من الاسكندرية وهو مقيم بها، فسير أستاذا من ثقافته، ظاهره فيما ندبه إليه وباطنه في العمل على المأمون وأخيه، وقال له: «أحرص على اجتماعك بعلي بن السلار في المسيرة وسلم عليه عنا، وقل

له: إننا مازلنا نلتفت إليه وندخره لمهماتنا ونتحقق فيه الموافاة لنا، وإننا بحمد الله قادرون على المكافأة بالخير أكثر من غيرنا، وقد تلونت أحوال المأمون وبالغ في عقوقنا بأشياء لا يتسع لنا ذكرنا ومقصودنا أن تكتم عنا ماتقول لك».

فلما بلغه الأستاذ ذلك عن الأمر قال: «السمع والطاعة لمولانا، وأنا مملوكه وباذل نفسي في خدمته» فقال الأستاذ: «هكذا والله قال عنك» قال ابن السلاز: «فما يأمر به؟» قال: «تحدث رفقتك بأجمعهم في الانفصال عن المؤمن، أنت ومن تثق به».

فلما تقرر ذلك اتفق علي بن السلاز هو، وقايازه، ودري الحرون، وكانوا أمراء الجماعة فتفرقوا عنه وتبعهم الباقون، فانفرد المؤمن واستوحش وكاتب أخاه المأمون بذلك، فما اتسع له أن يتبع الأمراء، ولا ينكر عليهم ليرجعوا إلى أخيه، لعلمه بتغير الخليفة عليه، مخافة أن يفسد أمره ظاهرا وباطنا، فحضر إلى الخليفة يوم سلام، على عادة الوزراء، وتقدم وقال: «يامولانا، صلوات الله عليك، وصل كتاب أخي يتذمم من طول مقامه خارج القاهرة وأسفه على ما يفوته من خدمة مولانا بالمباشرة، ويسأل الفسحة له في العود إلى بابه الكريم» فقال: «مرحبا وأهلا، وهذا كان رأينا، ونحن مشتاقون إليه، وإنما قصدنا رضاك فيما رتبته له، يقدم على بركة الله»، فكوتب عن الخليفة بالعود وأن يرتب في ولاياته من يرضاه فامثل ذلك.

ودخل القاهرة، فجلس الخليفة له في غير وقت الجلوس، فمثل بين يديه، وأكرمه وأدناه، وخلع عليه بالتشريف المفخم.

فلما دخل شهر رمضان، وفيه السباط كل ليلة بقاعة الذهب، ويحضر الوزير وإخوته وأصحابه، فحضر المأمون وأخوه المؤمن السباط أول ليلة،

فأكرمهما الأمر بما أخرجهما مما كانت يده فيه، وأرسل رسالة إلى المؤمن ليستأنس بحضوره السماط مع أخيه، فلم يتسع لهما مع هذه المكارمة الانقطاع.

وحضرا ثاني ليلة فزاد في إكramهما، ثم أمر بأن يدخل المأمون لمؤاكلته خاصة دون أخيه، فدخل إليه، ولم يتقدمه أحد من الوزراء بمثل ذلك، يعني بهذه المنزلة، وخرج هو وأخوه وأكد عليهما ألا ينقطعوا، وخلع عليهما من داخل الدار من الثياب الدارية، ثم حضرا ثالث ليلة، فاستدعي المأمون إلى الخليفة، فلما جلس معه على المائدة قال قد جفونا المؤمن، واستدعاه، فدخل، وصارا في قبضته، وكان قد رتب لهما من يأخذهما، فعند خروجهما للمضي قبض عليهما واعتقلهما عنده في خزانة، وسير بالحوطة على دورهما، ثم أمر بإحضار الشيخ الأجل أبي الحسن بن أبي أسامة، كاتب الدست، لينشئ شيئا في معنهما يقرؤه على المنبر باكرا، فوجد الشيخ أبو الحسن بمصر لعيادة مريض، فتقدم إلى والي القاهرة في الليل بأن يمضي إلى مصر لإحضاره، فظن والي القاهرة أنه طلب لغير ذلك، وكان يقال له سعد الدولة الأحذب، فمضى إليه وأزعجه من مكانه، وسبه أقبح سب، وأراد إحضاره إلى القاهرة ماشيا، فأحضره إلى الخليفة وهو ميت لأحراك به، فقال له: ما هذا؟ فأخبره بقضيته مع الوالي، فغضب على الوالي وأمر بخلع أخفافه من رجله وصفعه بهما، حتى تقطعا على قفاه، وصرفه من الولاية، وأطلع الشيخ أبا الحسن على قضية المأمون وأخيه، فقال يامولانا: هما نشو أيامك وممالك دولتك، فقال لبعض الأستاذين خذ هذا الشيخ وصوبه إلى المذكورين لينظرهما في اعتقالهما وينقطع رجاءه منهما، فأدخله إليهما، فرآهما مكبلين في الحديد، وعليهما احتياط عظيم، فأنشأ للوقت سجلا كان من استفتاحه:

«أما بعد، فإن محمد بن فاتك استنجح فما نجح، واستصلح فما

صلح، وجهل رفع قدره فغدا لهبوط، وقابل الإحسان إليه بدواعي القنوط» وكل ذلك في تلك الليلة.

فلما أصبح الصباح جلس الخليفة في الشباك بالإيوان، ونصب كرسي الدعوة أمامه، وطلع قاضي القضاة عليه وقرأه بعد اجتماع الأمراء وأرباب الرتب والعوام، فلم ينتطح فيها عنزان.

ويقال إن الخليفة كان يقول: أعظم ذنوبه عندي ماجرى منه في حق صور وإخراجها من يد الاسلام إلى الكفر.

وبقيا في الاعتقال، هما وأميران اتها، في خزانة البنود، وسير لإحضار الذي كان أنفذه المأمون إلى اليمن ليقتلهم جميعا، وتفرض الأمر لنفسه، ولم يبق له ضد ولامداج، وبقي بغير وزير^(٨٥).

وأقيم صاحباً ديوان الاستخراج^(٨٦) بما يجب من زكاة ومكس، أحدهما مسلم يقال له جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط والآخر سامري يقال له أبو يعقوب ابراهيم، وأقيم معها مستوف لهاتين المعاملتين وكان راهبا، فكانوا يستخرجون ذلك من أربابه، ويدخل صاحباً الديوان إلى الأمر في كل وقت ومعها المصحف والتوراة فيحلفان له أنها لايتعرضان إلا لمن يجب عليه لبيت المال حق، فيحملها في ذلك على الصدق، وربما اشتطا على الناس وزيدا عليهم مالايجب زيادته، فتأذى بسببها جماعة، والأمر لايطلع على ذلك ولاأشار به، واستمرا على ذلك مديدة.

سنة عشرين وخمسة

فيها جهز الأمر المنتضى بن مسافر الغنوي بخلع سنية وتحف مصرية وثلاثين ألف دينار للأمير البرسقي، صاحب الموصل، فلما كان في أثناء الطريق سمع بموته، فرجع بما معه إلى الأمر.

وفيها قدم الأمير الرئيس حمدان بن عبد الرحيم، مصنف «سيرة الفرنج الخارجين على بلاد الاسلام في هذه السنين» برسالة من صاحب حلب.

وفي شوال كان بدء أمر الراهب، وذلك أن راهبا من النصارى، يعرف بأبي نجاح بن متى كتب إلى الأمر رقعة في الكتاب النصارى من الأقباط يذكر أنهم قد أخذوا أموال الدولة واستولوا عليها، وضمن أنه يحقق في جهاتهم مايملاً بيوت الأموال، فتقدم الخليفة بأن يمكن من الدواوين ويساعد على ما يخرج من الحسابات، ولقب بالأب القديس الروحاني النفيس أبي الآباء سيد الرؤساء مقدم دين النصرانية، وسيد البطيركية، ثالث عشر الحواريين.

وكان الأمر لما انفرد بالأمر بعد القبض على وزيره المأمون، وبقي بغير وزير دانت له الدنيا، وكان معظما كثير الجود إلى الحد الذي لامزيد عليه، فكثر الخير في تلك الأيام، وفرح الناس بالفوائد، وتردد المسافرون والتجار، وجلبت البضائع، وزاد الحاصل في الخزائن من كل صنف مضافا إلى ما كان فيها، وحسنت السيرة في الرعية، وأباح للناس والجنود ماكان الأفضل حظره عليهم من الملابس والتجمل، فما برح الناس في خيرات دارة ونعم متزايدة إلى أن تمكن الراهب من الدواوين واشتد في مطالبة النصارى وحقق في جهاتهم الأموال، وحملها أولا فأولا، وكان قد حصل لهم في أيام الأفضل والمأمون مايزيد عن الوصف، فلما تمكن الراهب من النصارى واستطاب ماتحصل منهم ابتداء يعمل في المسلمين معاملي الديوان من المشارفين والضمنا والعمال.

فيها ركب الأمر لينظر جوسق البغدادي أبي الحسن علي بن محمد بن سعدون بالقرافة، فإنه كان من أحسن جواسق القرافة، وأفخرها بناء، فلما قرب منه سقط عن فرسه إلى الأرض فهنيء بالسلامة، وقيل في ذلك عدة أشعار.

سنة إحدى وعشرين وخمسة

فيها أحضر الموفق في الدين أبو الحسن علي بن ابراهيم بن نجيب الدولة، داعي اليمن، الذي سيره الوزير المأمون بن البطائحي، فدخل في يوم عاشوراء على جمل بطرطور، ومعه مشاعلية تصكه بلا كلل وخلفه قرد يصفعه، وهو يقول بقوة نفس: والله ماباليت ولا ألتفت، فأدخل خزانة البنود وسجن مع المأمون.

فيها كثرت مصادرة الراهب للكتاب والعمال، وتسلسل الأمر إلى التجار وأرباب الأموال، وندب معه مقداد والي مصر وسعد الدولة والي القاهرة للشد منه، فتنكد الناس وخرج كثير من أهل مصر إلى الآفاق، وأخذ الراهب يحسن للأمر أن يحمل إليه مال الأيتام من مودع الحكم.

وفيها مات قاضي القضاة جلال الملك تاج الأحكام، أبو الحجاج يوسف بن أيوب بن اسماعيل المغربي الأندلسي، وكان أولاً قد أقرأ المؤمن أخا المأمون القرآن والنحو، فولاه قضاء الغربية، ثم نقل منها إلى قضاء القضاة بعد واقعة ابن الرسعني بوساطة المؤمن، واستقر بعد وفاته في قضاء القضاة أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن الميسر القيسراني.

وكان أبو الحجاج عاقلاً، عرض عليه الأمر أن يلي الدواوين مضافاً إلى ما يتولاه من قضاء القضاة والمظالم، فاستشار في ذلك بعض أصحابه فأشار بالقبول، فقال: إني لأحسن صنعة الكتابة، فقال له: تجعل بين

يديك من يوضح لك طرق التدبير ويدللك على سر الصناعة فقال: ألا ترى إلا أنني قد رضيت أن أكون من الأسماء النواقص التي لا تتم إلا بصلة وعائد، واستحضرت من يدلني على ما أجهل، فكيف أصنع بين يدي السلطان؟ لقد حكمت إذا على نفسي بحكم حيف وأوردتها خطة خسف. رحمه الله.

سنة اثنتين وعشرين وخمسةائة

فيها وصلت رأس بهرام الباطني، وكان طغتكين أتاك، الملقب ظهير الدين، قد وهب له بانياس خوفا من شره، فأفسد جماعة بالشام، وجرت له خطوط آلت إلى قتله، وحملت رأسه إلى الأمر.

وفيها رتب قاضي القضاة أبا عبد الله محمد بن ميسر مشارفا على ثقة الدولة ابن أبي الرداد في قياس الماء وعمارة المقياس، وعمل مصالحة، فاستمر إلى أن قتل ابن ميسر ثم بطل، فلم ينظر أحد في هذه المشاركة.

وفي رجب عمل للأمر في الخاقانية^(٨٨)، وكانت من خاص الخليفة، قصر من ورد، فسار إليها وحده بضيافة عظيمة، فلما استقر هناك خرج إليه أمير يقال له حسام الملك— أحد الأمراء الذين كانوا مع المؤمن، أخي المأمون، في سفره في البلاد التي كان يتولاها وتخاذل مع ابن السلار عنه— وهو لابس لأمة حربيه، والتمس المشول بين يدي الخليفة، فاستثقل ماجاء به في ذلك الوقت لأنه مناف لما فيه الخليفة من الراحة والنزهة، فمنع من ذلك وصد عنه، فقال لجماعة من حواشي الخليفة:

أنتم منافقون على الخليفة إن لم أصل إليه وهو يطالبكم بذلك ويعاقبكم عليه، فأطلعوا الخليفة على أمره، فأمر بإحضاره فقال: يامولانا، لمن تركت أعداءك — يعني المأمون وأخاه — هذا والعهد قريب، أأمنت الغدر؟ فما أجابه إلا وهو على ظهور الرهاويج من الخيل^(٨٩)، فلم تمض ساعة إلا وهو بالقصر يمضي إلى مكان إعتقال المأمون وأخيه، فوجدهما على حالهما، فزادهما وثاقا وحراسة.

فلما كان في ليلة العشرين منه قتل المأمون وصالح بن الضيف، وكان من نشو المأمون وقد سجن معه، وعلي بن إبراهيم بن نجيب الدولة، المحضر من اليمن، وأخرجوا إلى سقاية ريدان^(٩٠) في الرمل، قبالة البستان الكبير خارج باب الفتوح، فصلب أبدانهم بغير رؤوس وفي صدر كل واحد رقعة فيها اسمه، فبلغ الأمر الناس فشكوا فيهم، وقالوا: هم غير المذكورين، فأمر بإخراج رؤوسهم وأقيمت على أبدانهم.

فيها كانت ولاية ابن ميسر القضاء في ذي الحجة على ما ذكر بعضهم، وقيل بل كانت كما تقدم، ولقب بثقة الدولة القاضي الأمين سناء الملك، شرف الأحكام، قاضي القضاة، عمدة أمير المؤمنين، أبي عبد الله محمد ابن القاضي أبي الفرج هبة الله بن ميسر، فلازم الانتصاب والجلوس، واعتمد التثبيت في الأحكام، وعدل جماعة، فبلغت عدة الشهود في أيامه مائة وعشرين شاهدا، وكانوا دون الثلاثين.

ثم وردت إليه المظالم، فاستوضح أحوال المعتقلين وطالع بهم الأمر، وكان فيهم عدة قد يئسوا من الفرج، فاستأذن الخليفة وأفرج عنهم، وتكلم مع الأمر في أمر التجار وما نزل بهم من المصادرات، فأمر الخليفة بكتابة منشورهم في معناهم قرىء على المنابر.

فيها كثرت وقائع أهل السر على الناس، وتقرب كثير من الكتاب

الظلمة بعورات الناس إلى الخليفة، فاشتدت مطالبات الناس بالأموال، وقبل قول كل رافع شيئاً على أحد، وأخذ الناس بما رموا به، وضمن عدة من الناس أشياء لم تجر عادة بضمائها، وأحدثت رسوم لم تكن فيما تقدم وذلك أنهم لم يقدرُوا على تصريح القول بالمصادرة، فعملوا ما ذكر، فحصلت الشناعة، وخرج من بالبلد من التجار.

وكثر مصادرات القاطنين بمصر والقاهرة، وعظم قدر ما حمل من أموال هذه الجهات، فاتسع عطاء الخليفة حتى وهب يوماً لغلामه بزغش، المنعوت بالعاذل ثمانين ألف دينار، ثم سأله بعد مدة يسيرة عما فعله فيما وهبه، فقال: يامولانا تصدقت ووهبت أكثر فأعجب ذلك الأمر، وفرح، وشكره على ما فعله، ووهب مرة لغلामه هزاز الملك جوامرد، المنعوت بالأفضل، مثل ذلك، وكانا أخص غلماناه وأقربهم منه، وأشرفهم عنده منزلة، وكانا أسمح خلق الله، وكان الناس في أيامهما لا يوجد فيهم من يشكو الفقر، لا بمصر ولا بالقاهرة، فإن هزاز الملوك كانت صدقته في كل يوم جمعة راتبا قد قرره بالقرافة أربعة آلاف درهم في ألف كاغدة، على يد الثقة ابن الصعيدي وغزال الوكيل، وكانت عطاياها من يده لا تنقص عن عشرة دنانير أبداً، ولا يخلوا ركوبه إلى القصر وعوده من أحد يقف له ويطلب منه، وكان بزغش يعطي الجمل الكبار التي يغني بها الطالب، من المائة دينار إلى المائتين وأكثر.

وبلغ علم التي يقال لها جمعة، مكنون الأمرية، أن الأمر سيدها قد وهب لكل من غلاميه المذكورين ثمانين ألف دينار، وكان الأمر يجبها وأصدقها أربعة عشر ألف دينار، وولدت منه ابنة سهاها ست القصور، فلما دخل عليها عشية اليوم الذي وهبها فيه هذا المال قامت وأغلقت عليها مقصورتها، وقالت: ماتدخل إلي أو تهب لي ما وهبت لكل منهما، فقال: الساعة، وأحضر الفراشين، وحمل كل عشرة كيساً فيه عشرة آلاف

دينار عينا، فلما صار إليها هذا المال، ومبلغه مائتا ألف دينار ذهباً،
فتحت الباب له ودخل (٩١).

سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة

فيها عم البلاء بمصر جميع الرؤساء والقضاة والكتاب والسوقة من
الراهب، بحيث لم يبق أحد إلا وناله منه مكروه، إما من ضرب أو نهب
أو أخذ مال، وكان يجلس في قاعة الخطابة من جامع عمرو بن العاص،
ويستدعي الناس للمصادرة، فطلب في بعض الأيام رجلاً يعرف بابن
العُرس من العدول المميزين المبجلين في الناس فأهانته وأخرق به، فخرج
إلى الجامع في يوم جمعة وقام على رجليه وقال: يا أهل مصر، انظروا عدل
مولانا الأمر في تمكينه النصراني من المسلمين، فارتج الناس لكلامه
وكادت تكون فتنة، فاتصل ذلك بخواص الخليفة، فأبلغوه إياه وخوفوه
عاقبة ذلك، وطالعهوا بها حل بالخلق.

وكان الراهب قد أخذ من شخص خادم يقال له جدّ نحو سبعين
ألف دينار بخرج من مائة ألف دينار، فصار يشكو، وكان كثير البضائع
والتجارات والمقارضين، فتظلم واشتهر أمره إلى أن بلغ خبره إلى أستاذ
من أستاذي القصر له من العمر نحو مائة وعشرين سنة، يقال له لامع
— وكان قد انقطع في منزله بالقصر بعد ما حج غير مرة، وأنشأ جلبة (٩٢)
بعيذاب يقال لها اللامعية تحمل الحاج — فاتفق جواز الأمر على مكانه
فسأل عنه، فقيل له: إنه لا يستطيع النهوض إلى خدمتك، فدخل إليه
وسأله عن حاله، فقال: شغلي بسمعة مولانا أشد علي من نفسي، فقال
له الأمر: لأي شيء؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن الناس قد تم عليهم من
الشدة مالا أحسن أصفه وربما نسب ذلك إليك، وشرح له أمر الراهب
ابن أبي نجاح وصاحبي الديوان جعفر بن عبد المنعم المعروف بابن أبي
قيراط، وأبي يعقوب ابراهيم السامري الكاتب، وما أخذوه من جد

الخادم، فحلف الأمر إنه ما علم أنهم بلغوا بالناس إلى هذا المبلغ، وأنه يستدعي صاحبي الديوان في كل وقت ويحلفها على المصحف وعلى التوراة، وأن الراهب لم يجعل إلا مستوفيا لما يستخرج من المال وليس له معها حديث ألبتة، فقال له الخادم: يا أمير المؤمنين، إنهم قد اتفقوا على أذى الناس، وقد جعلك الله خليفة في الأرض واسترعاك على عبادته، وكل راع مسؤول عن رعيته، فشق على الخليفة، وعمل فيه كلام هذا الأستاذ، وخرج، فما بات حتى صرف صاحبي الديوان واعتقلهما، ليستعيد منهما ما أخذاه للناس ظلما، واستدعى الراهب، وكان بحضرته رجل من الأشراف، فلما حضر الراهب أنشد الشريف:

إن الذي شرفت من أجله

يـزعم هذا أنه كاذب

فقال الأمر للراهب: يا راهب، ماذا تقول؟ فسكت فأمر حينئذ والي مصر بأخذه إلى الشرطة وضربه بالنعال حتى يموت، فمضى به إلى شرطة مصر، وما زال يضرب بالنعال حتى مات، فجر بكعبه إلى عند كرسي الجسر^(٩٣) مسحوبا، وسمر على لوح، وطرح في بحر النيل، فكان كلما وصل إلى ساحل من سواحل مصر وهو منحدر دفعوه إلى البحر، فلم يزل حتى خرج إلى البحر الملح، واشتهر ذكره، وسارت الركبان بهلاكه.

وكان هذا الراهب أولا من أشمون طناح^(٩٤) وترهب على يد أبي إسحاق بن أبي اليمن، وزير ابن عبد المسيح متولي ديوان أسفل الأرض، ثم قدم إلى القاهرة واتصل بخدمة ولي الدولة أبي البركات يحنا بن أبي الليث، كاتب المجلس، ولما قتل الوزير المأمون اتصل بالخليفة الأمر، وبذل له في مصادرة الكتاب النصراني مائة ألف دينار، فأطلق يده فيهم، واسترسل أذاه حتى شملت مضرته كل أحد.

وكان يعمل له في تنيس ودمياط ملابس مخصوصة من الصوف

الأبيض بالذهب، فيلبسها ومن فوقها غفارة^(٩٥) ديباج، ويتطيب بعدة مثاقيل مسك في كل يوم فكانت رائحته تشتم من مسافة بعيدة، وكان يركب الحمر الفارحة بالسروج المحلاة بالذهب والفضة، ويجلس بقاعة الخطابة من جامع مصر.

ولما قتل وجد له في مقطع ثلاثمائة طراحة سامان محشوة جردا لم تستعمل، قد رصت إلى قرب السقف، وهذا من نوع واحد، فكيف ما عداه؟.

ولما قتل وعرف الأمر ما كان يعمل في الناس من أنواع الأذى خشي من الله واستحيا من الناس، وكره مساءلة الفقهاء من الاسماعيلية عن ذلك وعن كفارة هذا الذنب لأنه إمام، وشرط الإمام أن يكون معصوما، فسير إلى الفقيه سلطان بن رشا شيخ الفقيه مجلي، وكان خليفة الحكم، مع من يثق به يستفتيه في أمر الراهب وما يكفر عنه، فقال: يرد ما صار إليه من الأموال إلى أربابها، فرد عليه: إنى والله ما أعرفهم ولا أقدر على ذلك، ولكن أعتق الرقاب وأتصدق، فقال الفقيه: الخليفة قادر على أن يعتق ويتصدق ولا يتأثر لذلك، ولكن يصوم فإنه عبادة شاقة على مثله، فقال: أصوم الدهر؟، قال: لا، ولكن الصوم الذي وصفه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، صوم يوم وفطر يوم، فقال: لا أقدر على ذلك، فقال: يصوم رجب وشعبان ورمضان، ففعل ذلك، وتخرج في صومه وبره هذه الأشهر من كل ما ينكر في الديانة.

سنة أربع وعشرين وخمسمائة

في ربيع الأول ولد للأمير ولد سماه أبا القاسم الطيب، فجعل ولي عهده، وأمر فزينت القاهرة ومصر، وعملت الملاهي في الإيوانات وأبواب القصور، وكسيت العساكر، وزينت القصور، وأخرج الأمر من خزائنه

وذخائره قماشا ومصاغا مايين آلات وأواني من ذهب وفضة وجوهر، فزين بها، وعلق الإيوان جميعه بالستور والسلاح، واستمر الحال على هذا أربعة عشر يوما.

وأحضر الكباش الذي يعق به عن المولود، وعليه جل من ديباج، وفي عنقه قلائد الفضة، فذبح بحضرة الخليفة الأمر، وجيء بالمولود فشرف قاضي القضاة ابن ميسر بحمله، ونشرت الدنانير على رؤوس الناس، ومدت الأسمطة العظيمة بعد ماكتب إلى الفيوم والقليوبية، والشرقية فأحضرت منها الفواكه، وملئ القصر منها ومن غيرها من ملاذ النفوس، وبخر بالعنبر والعود والند حتى امتلأ الجو من دخانه.

فيها تواترت الأخبار بتخويف الأمر من اغتيال النزارية وتحذيره منهم، وإعلامه بأنه قد خرج منهم قوم من المشرق يريدون قتله، فتحرز احترازا كبيرا بحيث إنه كان لا يصل أحد من قطر من الأقطار إلا ويفتش ويستقصى عنه، وأقام عدة من ثقاته يتلقون القوافل ليتعرفوا أحوال الواصلين ويكشفوا عنهم كسفا جليا، وكلما اشتد الأمر كثر الخوف، واتصل به أن جماعة من النزارية حصلوا بالقاهرة ومصر، فاحترز وتحيل في قبضهم فلم يقدر لما أراده الله، وفشا في الناس أمرهم، وكانوا عشرة فخافوا أن يظفر بهم، فاجتمعوا في بيت وقالوا إنه قد فشا أمرنا ولانأمن أن يظفر بنا، واشتوروا فقال احدهم: الرأي أن تقتلوا رجلا منكم وتلقوا برأسه بين القصرين لتنظروا إن عرفها الأمر فتتيقنوا أن حلاككم قد ذكرت له، فتعملوا الحيلة في فراركم من مصر، وإن لم يعرفها فتطمئنوا حينئذ وتعرفوا أن القوم في غفلة، فقالوا: مايتسع لنا قتل واحد منا ينقص عددنا ومابذاك أمرنا، فقال: أليس هذا من مصلحتنا ومصلحة من تلزمنا طاعته، وما دلتكم إلا على نفسي، وشرع بسكين فذبح بها نفسه فمات، وأخذوا رأسه ورموها في الليل بين القصرين، وأصبحوا ينظرون مايتفق فلما رثيت الرأس واجتمع الناس عليها لم يقل

أحد أنا أعرفها، فحملت إلى الوالي، فأحضر عرفاء الأسواق على أرباب المعايش وأوقفهم عليها فلم يعرفها أحد، فأحضر أصحاب الأرباع بالحارات، فلم يعرفوها، ففرح النزارية واطمأنوا بالإقامة في مصر لقضاء مرادهم.

وكان الأمر كثير الفرج محبا للهو، فركب في يوم الثلاثاء الرابع من ذي القعدة يريد المضي إلى الهودج، الذي بناه بجزيرة مصر لمحبوته البدوية، ومن العادة في الركوب أن يشاع في أرباب الخدم بالموكب جهة قصد الخليفة حتى لايتفرقوا عنه، فعلم النزارية أين يقصد فجاءوا إلى الجزيرة المذكورة ودخلوا فرنا قبالة الطالع من الجسر إلى البر، ودفعوا إلى الفران دراهم ليعمل لهم فطيرا بسمن وعسل، فبينما هم في أكله وإذا بالخليفة الأمر قد عبر من كرسي الجسر بمصر وجاز عليه وقد تفرق عنه الركابية ومن يصونه بسبب ضيق الجسر، فلما طلع من آخر الجسر يريد العبور إلى الجزيرة وثبوا عليه وثبة رجل واحد وضربوه بالسكاكين، وواحد منهم صار خلفه على كفل الدابة وضربه عدة ضربات، فأدركهم الناس وقتلوهم، وكانوا تسعة، وحمل الأمر في عشاري إلى اللؤلؤة، وكانت أيام النيل، فمات من يومه، وحمل من اللؤلؤة وهو ميت إلى القصر.

وكان عمره يوم قتل أربعاً وثلاثين سنة وتسعة أشهر واثنين وعشرين يوماً، ومدة خلافته تسع وعشرون سنة وثمانية أشهر وخمسة عشر يوماً، ومازال محكوماً عليه حتى قتل الأفضل، فتزايد أمره عما كان عليه أيام الأفضل، فلما قبض على وزيره المأمون استبد بالأمور، وتصرف في سائر أحوال المملكة، وأكثر من الركوب، ورتب لركوبه ثلاثة أيام في كل اسبوع وهي: يوم الجمعة، ويوم السبت، ويوم الثلاثاء، فإذا لم يتهياً له الركوب في أحد هذه الأيام ركب في يوم غيره، فكان يمضي أبداً في يومي الثلاثاء والسبت إلى النزهة في بستان البعل، والتاج، والخمس وجوه، وقبة

الهواء، من ظاهر القاهرة، أو إلى دار الملك بمصر، أو بالهودج الذي أنشأه بجزيرة مصر التي يقال لها اليوم الروضة.

وكان يتحول في أيام النيل من القصر بخدمه ويسكن في اللؤلؤة المطلة على خليج القاهرة، وكان الناس يوم ركوبه يخرجون من القاهرة ومصر بمعائشهم ويجلسون للنظر إليه، فيكون كيوم العيد، وصار الناس مدة أيامه التي استبد فيها في هو وعيش رغد لكثرة عطائه وعطاء حواشيه وأستاذيه، لاسيما غلامه بزغش ورفيقه هزار الملوك جوامرد، حتى إنه لا يكاد يوجد في مصر والقاهرة من يشكو زمانه لبطهم الرزق بين الناس وتوسعهم في العطاء ثم تنكد عيش الناس بقيام الراهب وكثرة مصادراته، وشره حيثئذ الأمر في أخذ أموال الناس، فقبحت سيرته، وكثر ظلمه واغتصابه لأملاك كثيرة من أملاك الناس، مع مافيه من التجرؤ على سفك الدماء وارتكاب المحذورات واستحسان القبائح.

وفي أيامه ملك الفرنج كثيرا من المعازل والحصون بسواحل البلاد الشامية، فملك عكا في شعبان سنة سبع وتسعين، وعركة في رجب سنة اثنتين وخمسة، واستولوا على مدينة طرابلس الشام بالسيف في يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وخمسة، وملكوا بانياس وجبيل بالأمان لثمان بقين من ذي الحجة منها، وملكوا قلعة تبين في سنة إحدى عشرة وخمسة، وتسلموا مدينة صور في سنة ثمان عشرة وخمسة.

وكثرت المرافعات في أيامه، واستخدم عدة من الكتاب الظلمة الأشرار، وضمن أشياء لم تجر العادة بتضمينها، وأخذ رسوماً تكن فيما تقدم.

وعمل دكة عليها خركاة في بركة الحبش، وعمر في بركة الحبش مكانا سماه تيس وموضعا آخر سماه دمياط، وجدد قصر القرافة، وعمل تحته

دكة—مصطبة— للصوفية، فكان يجلس في أعلاه ويرقص أهل الطريقة قدامه، والشمع موقود والمجامر تعبق بالبخور، والأسمطة تمد بكل صنف لذيد من الأطعمة والحلوى، وفرق في ليلة عند تواجد ابن الجوهري الواعظ وتمزيق رقعته على من حضر وعلى الفقراء ألف نصفية، ونشر عليهم من الطاق ألف دينار تخاطفوها.

وبنى الهودج لمحبوته العالية البدوية في جزيرة الروضة، ولهذه البدوية وابن مياح، من بني عمها، مع الأمر أحاديث صارت كأحاديث البطال وشبهها قد ذكرتها عند جزيرة الروضة من هذا الكتاب.

وكان المنفق في مطابخه وأسمطته شيء كثير، فكان عدة ما يذبح له في كل شهر خمسة آلاف رأس من الضأن خاصة، سوى ما يذبح مما سوى ذلك، وثمان الرأس منها ثلاثة دنانير.

وكان أسمر شديد السمرة، يحفظ القرآن، وخطه ضعيفا، وكانت نفسه تحده بالسفر إلى الشرق والغارة على بغداد، وأعد لذلك سرجا مجوفة القراييص، وبطنها بصفائح من قصدير ليحمل فيها الماء، وعمل لها فم فيه صفارة فإذا دعت الحاجة إلى الماء شرب منه الفارس، فكان في كل سرج منها سبعة أرطال من ماء، وعمل عدة من مخالي الخيل من الديباج، وقال في ذلك:

دع اللوم عني، لست مني بموثق
فلا بد لي من صدمة المتحقق
وأسقي جيادي من فرات ودجلة
وأجمع شمل الدين بعد التفرق

ومن شعره أيضا:

أما والذي حجت إلى ركن بيته

جراهم ركبان مقلدة شهبها

لأقتحم من الحرب حتى يقال لي
ملكتم زمام الحرب، فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم
فيرضى بنا صجبا ونرضى به صجبا

وكانت وزارة الأفضل ابن أمير الجيوش، وكان حاجرا عليه ليس له
معه أمر ولا نهي، ولا نفوذ كلمة إلى أن قتل، ثم وزر له المأمون محمد بن
فاتك البطائحي، فصار له في وزارته أمر ونهي، وعادت الأسمطة على
ما كانت عليه قديما، وكان الأفضل قد نقلها فصارت تعمل أيام الأعياد
والمواسم في دار الملك بمصر حيث كان يسكن، فلما قتل المأمون استبد
ولم يستوزر أحدا، ودانت له الدنيا.

قضاته: ابن ذكا النابلسي، ثم ولي نعمة بن بشير، فطلب الإقالة، فولى
بعده الرشيد أبو عبد الله محمد بن قاسم بن زيد الصقلي، ومات، فاستقر
بعده الجليس نعمة بن بشير النابلسي مرة ثانية، ثم صرف بأبي الفتح
مسلم بن الرسعني، وعزل بأبي الحجاج يوسف بن أيوب المغربي، فلما
مات استقر من بعده أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر القيسراني،
وقتل الأمر وهو قاض.

كتاب الإنشاء في أيامه: سناء الملك أبو محمد بن محمد الزبيدي
الحسيني، والشيخ الأجل أبو الحسن بن أبي اسامة الحلبي، والشيخ تاج
الرئاسة أبو القاسم ابن الصيرفي، وابن أبي الدم اليهودي.

وكان نقش خاتمه: «الإمام الأمر بأحكام الله أمير المؤمنين».

وفي أيامه نزع السعرة، فبلغ القمح كل أردب بدينار، وكان الناس قد
ألفوا الرخاء في أيام الأفضل والمأمون، وبعد عهدهم بالغلاء، فقلقوا
لذلك.

ومن نوادر الأمر أنه عاشر الخلفاء الفاطميين، وهو العاشر في النسب أيضا، ولم يل عشرة على نسق واحد ليس بينه أخ ولا عم ولا ابن عم غير الأمر.

وعرض عليه فصل في التوحيد من جملته: «وهو المحذر بقوارع التهديد، من يوم الوعد والوعيد» فقال: إذا حذر من الوعد كما يحذر من الوعيد، فما الفرق بينهما؟ وأمر أن يقال: «المحذر بقوارع التهديد ومن هول يوم الوعيد» واستدرك في فصل آخر في ذكر علي، رضي الله عنه، قوله: «وهو السابق إلى دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإجابته» فقال: إن قوله «السابق» غير مستقيم، لأنه إن أراد التخصيص فذلك غير صحيح، إذ كانت خديجة سبقت إلى الإسلام، والسابق منهم جائز أن يكون واحدا وأن يكون جماعة، والله تعالى يقول: «والسابقون السابقون (٩٧)» وليس في ذلك دليل على تخصيص واحد بالتقدم على الباقي، ثم ذكر مثالا فقال: خيل الحلبة إذا أقبلت منها عشرة لا يخرج فيها واحد عن واحد قيل لها «السبق» وقيل لكل واحد منها سابق، وأمر أن يقال: «أول سابق إلى دعوة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وإجابته».

الحافظ لدين الله أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبي القاسم محمد بن المستنصر بالله أبي تميم معد

ولد بعسقلان في المحرم سنة سبع؛ وقيل سنة ثمان، وستين وأربعمائة لما أخرج المستنصر ابنه أبا القاسم مع بقية أولاده في أيام الشدة، فكان يقال له الأمير عبد المجيد العسقلاني، ابن عم مولانا.

ولما قتل النزارية الأمر كان كبار غلمانه العادل بزغش وهزار الملوك جوامرد، وينعت بالأفضل، فعمدا إلى الأمير أبي الميمون عبد المجيد، وكان أكبر الجماعة الأقارب سنا، وقالوا: إن الخليفة المنتقل قال قبل وفاته بأسبوع عن نفسه: «المسكين المقتول بالسكين، وأشار إلى أن الجهة الفلانية حامل منه، وأنه رأى رؤيا تدل أنها ستلد ولدا ذكرا وهو الخليفة من بعده وأن كفالتة للأمير عبد المجيد أبي الميمون، فجلس المذكور كفيلا، ونعت بالحافظ لدين الله، في يوم الثلاثاء رابع ذي القعدة سنة أربع وعشرين وخمسائة، يوم قتل الأمر بأحكام الله، وتقرر أن يكون هزار الملوك وزيرا، وأن يكون الأمير السعيد يانس متولي الباب أسفهلارا، وقرىء سجل في الإيوان بهذا التقرير والحافظ في الشباك جالس، تولى قراءته قاضي القضاة ابن ميسر على كرسي نصب له أمام الحافظ، بحضور أرباب الدولة.

وخلع على هزار الملوك خلع الوزارة، وقد اجتمع في «بين القصرين» خمسة آلاف فارس وراجل، وفيهم رضوان بن ولخشي، أحد الأمراء المميزين أرباب الشجاعة، وهو رأس الجمع، وفي داخل القاعة بالقصر أيضا جماعة فيهم بزغش وقد شق عليه تقدم هزار الملوك وتقلده الوزارة، فنظر إلى أبي علي أحمد بن الأفضل، الملقب كتيفات، وهو جالس، فقال: يامولاي الأجل، أنا أشح عليك أن تطيل الجلوس حتى يخرج هذا

الفاعل الصانع وزيرا فتخدمه ويسومك المشي في ركابه، اخرج إلى دارك، وإذا قضى الله مضيت منها لهنائه.

وكان ظاهر هذا القول مكارمة أبي علي وباطنه أنه علم أن أكثر العسكر الواقفين بين القصرين لا يرغبون وزارة هزار الملوك، فدبر أنهم إذا وقعت أعينهم على أبي علي تعلقوا به وأقاموه وزيرا، فيفسد أمر هزار الملوك، فقام أبو علي ليخرج، فمنعه طعج أحد نواب الباب، وكان فطنا ذكيا، فقال له بزغش: لم تمنع هذا المولى من الخروج؟ فقال: كيف لأمنعه من الخروج إلى هذا الجمع، ولا يؤمن تعلق العسكرية فيقع له ما وقع للآخر، فنهه بزغش وقال له: دع عنك الفضول، وقام بنفسه وأخرجه إلى آخر دهاليز القصر، فما هو إلا أن خرج من باب القصر ورآه رضوان بن ولخشي والجماعة، وقد علموا أن هزار الملوك قد خلع عليه للوزارة وأنه سيخرج إليهم، فتواثبوا إلى أبي علي وقالوا هو الوزير ابن الوزير ابن الوزير، وأراد أن ينفلت منهم، واعتذر أنه شرب دواء، فلم يقبل منه، وطلب له في الحال خيمة وبيت صدر، فضربت في جانب من بين القصرين، وأدخلوه فيها.

وقام الصائح وثار العسكر بموافقتهم على وزارته والرضا به، وصاحوا أن لاسبيل أن يلي علينا هذا الصانع الفاعل، وأعلنوا بشتمه، فغلقت أبواب القصر كلها واشتد الأمر، فأحضر ضرغام وأصحابه سلام وأقاموها إلى طاقات المنظرة، وأطلعوا عليها أميرا يقال له ابن شاهنشاه، فلما أشرف على طاق المنظرة جاء أستاذو الخليفة وأنكروا عليه فعله، فقال هذه فتنة تقوم مايسواها هذا الذي خلعتم عليه، ويحصل من ذلك على الخليفة من الغرامة وسوء أدب جهال العسكر مالايتلاف، وماهذا مني والله إلا نصيحة لمولانا، فإنني قد علمت من رأي القوم مالاعلمتم، أخبروا مولانا عني بهذا.

فمضى الأستاذون إلى الحافظ وأبلغوه ما قال ابن شاهنشاه وهزار

الملوك بين يديه بخلع الوزارة يسمع القول، فقال له الحافظ: ها أنت تسمع ما يقال، فقال: يامولانا، أنا في محلك ووزارتي بوصية خليفة قبلك، فاتركني أخرج لهؤلاء الفعلة الصنعة، فقال: لاسبيل لفتح باب القصر في مثل هذا الوقت، وقد فعلنا في أمرك مارتب لك، وهذه الخلع عليك، ولكن قد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: لارأي لمن لا يطاع.

واشدد الأمر وكثر تموير العسكر، فقبل لابن شاهشناه: قد أجبتهم إلى وزارة أبي علي ومانحن له كارهون، فأعاد ذلك على رضوان وأصحابه، فقالوا: قل له يسلم لنا هزار الملوك، فامتنع من ذلك وقد تكاثر القوم على سور القصر وعزموا على طلب المذكور ولابد، فقال الحافظ له: قم واحتجب في مكان عسى ندبر في قضيتك أمرا نصرف به هذا الجمع عنا وعنك.

فنزعت الخلع (التي) عليه وأحيط به، فصار إلى مكان قتل فيه قتلة مستورة وألقيت رأسه إلى القوم فسكنوا.

واستدعي بالخلع لأبي علي، فأفيضت عليه في يوم الأربعاء خامسه، وركب إلى دار الوزارة والجماعة مشاة في ركابه، فكانت وزارة هزار الملك نصف يوم بغير تصرف، وكان قد اصطفاه الأمر لنفسه هو وبزغش قبل موته بمدة، ورد له المظالم والنظر في أحوال الجند، وهو نوع من الوزارة، وكان ينعت بالأفضل.

ووقع النهب في القاهرة من باب الفتوح إلى باب زويلة، ونهبت القيسارية وكان فيها أكثر ما يملكه أهل القاهرة لأنها كانت مخزنهم ومذ بنيت لم يكن فيها أمر يكره، فكان هذا أول حادث حدث على القاهرة من النهب والطمع.

وطيف برأس هزار الملوك على رمح، واستقرت الوزارة لأبي علي أحمد ابن الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي، وكان يلقب بكتيفات، في يوم الخميس سادس عشر ذي القعدة، فأول ما بدأ به أنه أحاط بالحافظ وسجنه في خزانة فيما بين الإيوان وباب العيد^(٩٩) ويقال إن رضوان بن ولخشي دخل إليه وقيده، فقال له الحافظ: أنت فحل الأمراء فنعت بذلك.

وتمكن أبو علي واستولى على جميع مافي القصر من الأموال والذخائر، وحمل الجميع إلى دار الوزارة بعد أن فرق أكثر ما كان الأمر جمعه من الغلال في الناس على سبيل الإنعام، وكان السعر غاليا، يباع القمح بنحو الدينار كل إردب، فأراد أبو علي أن يحسن سمعته، فأمر أن تفتح المخازن وأطلق أكثر ما كان فيها، وكانت مئين ألوف ارادب، ورد على الناس الأموال التي فضلت في بيت المال من مال المصادرة التي كان قد أخذها الأمر في أيام مباشرة الراهب وما كتبت به الخطوط قبل ذلك، وكان الذي وجد خمسين ألف دينار، فاستبشر الناس به، وفرحوا فرحا طاشت منه عقولهم، وضجوا بالدعاء له في سائر أعمال الديار المصرية، وأعلنوا بذكر معائب الأمر ومثالبه، وأقطع الحجرية البلاد، وظهر فرح الناس وابتهاجهم.

وأكرم بزغش العادل الذي أشار عليه بالخروج من القصر إكراما كثيرا، وكانت قد ضربت ألواح على عدة أملاك في أيام الأمر فأعيدت إلى أربابها.

وكان إماميا متشددا، فالتفت عليه الإمامية ولعبوا به حتى أظهر المذهب الإمامي، وتزايد الأمر فيه إلى التأذين فانفعل بهم، وحسنوا له الدعوة للقائم المنتظر، فضرب الدراهم باسمه ونقش عليها: «الله الصمد الإمام محمد»، وخطب بنفسه في يوم الجمعة، وكان أكثر خلق الله تخلفا

وأقلهم علما، فغلط في الخطبة غلطة فاحشة صحفها فلم ينكر عليه أحد.

واشتد ضرره على أهل القصر من الإرعاد والإبراق، وأكثر من إزعاجهم والتفتيش على ولد الأمر وعلى يانس، صاحب الباب، وعلى صبيان الخائن الأمرية، وأراد أن يخلع الحافظ ويقتله بمن قتله الأمر من إخوته، وكان الأمر لما احتاط على موجود الأفضل بعد قتله بلغه عن أولاد الأفضل كلام في حقه يستتبع ذكره، فأقام عليهم الحجة عندما مثلوا بحضرته، وقال: أبوكم الأفضل غلامي ولا مال له، فسفه عليه أحدهم، فغضب وقتلهم، فأراد أبو علي بتفتيشه على الحمل الذي ذكر أنه من الأمر أن يظفر به ليقته بإخوته، فلم يظهر الحمل، ولا قدر أيضا على قتل الحافظ ولاخلعه، فاعتقله كما تقدم، وخطب للقائم المنتظر تمويها، فنشرت قلوب أهل الدولة منه، وقامت نفوسهم منه، وتعصب قوم من الأجناد من خاص الخليفة، بترتيب يانس لهم، وتحالفوا سرا على قتله، وكانوا أربعين رجلا، وصاروا يرتقبون فرصة ينتهزونها.

فيها قبض على جعفر بن عبد المنعم بن أبي قيراط وعلى أبي يعقوب ابراهيم السامري، ونهب الجند دورهما، وجبسا في حبس المعونة^(١٠١) ثم أخرجوا ميتين.

سنة خمس وعشرين وخمسةائة

فيها رتب أبو علي بن الأفضل في الحكم أربعة قضاة، فصار كل قاضي يحكم بمذهبه ويورث بمذهبه، فكان قاضي الشافعية سلطان بن ابراهيم بن المسلم بن رشا، وقاضي المالكية أبو عبد الله محمد بن أبي محمد عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللبني المغربي، وقاضي الاسماعيلية أبو الفضائل هبة الله بن عبد الله بن حسن بن محمد القاضي فخر الأمانة الأنصاري الأوسي المعروف بابن الأزرق، وقاضي الإمامية

القاضي المفضل أبو القاسم بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن بن محمد ابن أبي كامل، ولم يسمع بمثل هذا في الملة الإسلامية قبل ذلك.

سنة ست وعشرين وخمسة

في يوم الثلاثاء سادس عشر المحرم ركب أبو علي أحمد بن الأفضل إلى رأس الطابية ليعرق فرسا في الميدان بالبستان الكبير خارج باب الفتوح من القاهرة، وللعب بالكرة على عادته، فجاء وهو هناك عشرة من صبيان الخاص الذين تحالفوا على قتله متى ظفروا به جميعا أو فرادى، فصاح أبو علي (علي) عادة من يسابق بالخيال: راحت، فقال العشرة: عليك، وحملوا عليه وطعنوه حتى قتل، فأدركه أستاذ من أستاذه وألقى نفسه عليه فقتلوه معه.

واجتمع الأربعون عنانا واحدا وجاءوا إلى القصر وفيهم يانس، وكان مستوحشا من أبي علي، فأخرجوا الحافظ من الخزانة التي كان معتقلا بها، وفكوا عنه القيد وأجلسوه في الشباك على منصة الخلافة وقالوا، ماحركنا على هذا إلا الأمير يانس، فاجتمع الناس، وأخذ له العهد على أنه ولي عهد كفيل لمن لم يذكر اسمه.

ونهب في هذا اليوم كثير من الأسواق والدور والحوانيت، وصار ذلك عادة مستقرة وشيئا معهودا في كل فتنة.

وحملت رأس أبي علي إلى القصر، وكان قد أسقط منذ أقامه الجند ذكر اسماعيل بن جعفر الصادق الذي تنسب إليه الطائفة الاسماعيلية، وأزال من الأذان قولهم فيه: «حي على خير العمل، محمد وعلي خير البشر» وأسقط ذكر الحافظ من الخطبة، واخترع لنفسه دعاء يدعى به على المنابر وهو: «السيد الأجل الأفضل، سيد ممالك أرباب الدول، المحامي عن حوزة الدين، وناشر جناح العدل على المسلمين، الأقربين والأبعدين،

ناصر إمام الحق في حالي غيبته وحضوره، والقائم في نصرته، بياضي سيفه وصائب رأيه وتدبيره، أمين الله على عباده، وهادي القضاة إلى اتباع شرع الحق واعتماده، ومرشد دعائه المؤمنين إلى واضح بيانه وإرشاده، مولى النعم، رافع الجور عن الأمم، مالك فضيلتي السيف والقلم، أبو علي أحمد بن السيد الأجل الأفضل أبي القاسم شاهنشاه أمير الجيوش».

وكانت مدة تحكمه سنة وشهرا وعشرة أيام، ثم حمل بعد قتله ودفن بترية أمير الجيوش^(١٠٢) ظاهر باب النصر.

وخلع على السعيد أبي الفتح يانس الأرمني، صاحب الباب، خلع الوزارة، وكان من غلمان الأفضل ابن أمير الجيوش العقلاء، وله هبة، وعنده تماسك في الأمور وحفظ للقوانين فهدأت الدهماء وصلحت الأحوال، واستقرت الخلافة للحافظ، وحمل جميع ما كان قد نقل إلى دار الوزارة من الأموال والآلات وأعيد إلى القصر.

ولم يحدث يانس شيئا إلا أنه تخوف من صبيان الخاص، وحدثته نفسه أنهم قد جسروا على الملوك، وأنه ربما غضبوا منه ففعلوا به ما فعلوا بغيره، وأحسوا منه بذلك فتفرقوا عنه.

فلما تأكدت الوحشة بينهم وبينه ركب في خاصته وغلمانه وأركب العسكر، والتقوا قبالة باب التبانين^(١٠٣) بين القصرين، فقتل منهم ما يزيد عن ثلاثمائة فارس من أعيانهم، فيهم قتلة أبي علي أحمد بن الأفضل، وكانوا نحو خمسمائة فارس، فكسر شوكتهم وأضعفهم، فلم يبق منهم من يؤبه له ولا يعتد به، فقوي أمر يانس وعظم شأنه.

وكانت له في النفوس مكانة، فنقل على الحافظ وتخييل منه، فأحس بذلك، وصار كل منهما يدبر على الآخر، فبدأ الوزير يانس بحاشية الخليفة، فقبض على قاضي القضاة وداعي الدعاة أبي الفخر صالح بن

عبد الله بن رجاء، وأبي الفتوح بن قادوس فقتلها، وبلغه شيء يكرهه عن أستاذ من خاص الخليفة، فقبض عليه من غير مشاورة الحافظ، واعتقله بخزانة البنود، وضرب عنقه من ليلته، فاستبدت إلوحشة بينه وبين الحافظ، وخشي من زيادة معناه، فقال لطبيبه: إكفني أمره بمأكل أو مشرب، فأبى الطبيب ذلك خوفا من سوء العاقبة، ويقال إن الحافظ توصل إلى أن سم يانس في ماء المستراح، فانفتح دبره واتسع حتى مابقي يقدر على الجلوس، فقال الطبيب: يا أمير المؤمنين، قد أمكنت الفرصة وبلغت مقصودك، فلو أن مولانا عاده في هذه المرضية اكتسب حسن الأحدوثة، وهذا المرض ليس دواؤه إلا السكون ولا شيء أضر عليه من الحركة والانزعاج، وهو لما يسمع بقصد مولانا تحرك واهتم بلقائه وانزعج، وفي ذلك تلاف نفسه، فقبل ذلك وجاء لعيادته، فلما راه يانس قام للقاءه وخرج عن فراشه، فأطال الحافظ جلوسه عنده ومحادثته، فلم يقم حتى سقطت أمعاؤه، ومات من ليلته، في سادس عشرين ذي الحجة.

وكانت وزارته تسعة أشهر وأياما، وترك ولدين كفلها الحافظ.

وكان يانس هذا قد أهده (ابن) باديس جد عباس الوزير—الآتي ذكره إن شاء الله تعالى— إلى الأفضل ابن أمير الجيوش فترقى في الخدم إلى أن تأمر وتقدم وولي الباب، وهي أعظم رتب الأمراء، وكنى بأبي الفتح ولقب بالسعيد، ثم نعت في وزارته بناصر الجيوش سيف الاسلام، وكان عظيم الهمة بعيد الغور، كثير الشر، شديد الهيبة.

وفيها استقرت حال الحافظ لدين الله، وبويع له بيعة ثانية لما علم الحمل.

قال الشريف محمد بن أسعد الجواني: رأيت صغيرا في القرافة

الكبرى، ويسمى بقفيفة، سألت عنه، قيل هذا ولد الأمر: لما ولى الحافظ ولى عهده من يولد، استولى على الأمر، وولد هذا الولد فكتم حاله، وأخرج في قفة على وجهها سلق وكرات، وستر أمره إلى أن ركب بعد ذلك ووشي به فأخذ وقتل.

ولما تمكن الحافظ قرىء سجل بإمامته، وركب من باب العيد إلى باب الذهب بزى الخلفاء، في ثالث ربيع الأول، ورفع عن الناس بواقى مكس الغلة.

وأمر بأن يدعى له على المنابر بهذا الدعاء، وهو: «اللهم صل على الذي شيدت به الدين بعد أن رام الأعداء دثوره، وأعززت الاسلام بأن جعلت طلوعه على الأمة وظهوره، وجعلته آية لمن تدبر الحقائق بباطن البصيرة، مولانا وسيدنا، وإمام عصرنا وزماننا عبد المجيد أبي الميمون، وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين، صلاة دائمة إلى يوم الدين».

وفيها صرف أبو عبد الله محمد بن هبة الله بن ميسر عن قضاء القضاة، في أول ربيع الأول، وقرر مكانه سراج الدين أبو الثريا نجم بن جعفر، وأضيفت إليه الدعوة، فقبل له قاضي القضاة وداعي الدعاء، وذلك وقت العشاء الآخرة من ليلة الخميس لثلاث عشرة بقيت من جمادى الآخرة.

ولما مات يانس تولى الحافظ الأمر بنفسه ولم يستوزر أحدا وأحسن السيرة.

ويقال إن يانس لما قتل القاضي أبا الفخر سلم الحكم إلى سراج الدين أبي الثريا نجم بن جعفر.

وفيها جهز الحافظ الأمير المنتضى أبا الفوارس وثاب بن مسافر

الغنوي رسولا في الرابع من ذي القعدة بجواب شمس الملوك، صاحب دمشق، وأصبحه الخلع السنية وأسفاط الثياب والخيل المسومة، ومالا متوفرا، فوصل إلى دمشق وتلقي أحسن تلقي وقبلة الألفاف منه، وقرىء كتابه، وأقام إلى أن أعيد من القابلة.

وفيها خرج أبو عبد الله الحسين بن نزار بن المستنصر، وكان قد توجه إلى المغرب مستخفيا وجمع هناك جموعا كثيرة وعاد، فبعث الحافظ إلى مقدمي عسكره يستميلهم، فلما وصل دير الزجاج والحمام اغتالوه وقتلوه، فانفض جمعه.

سنة سبع وعشرين وخمسة

فيها حشد جماعة من العبيد بالأعمال الشرقية، فخرج إليهم عسكر كانت بينهم وبينه حروب.

وفيها سلم الحافظ أمر الديوان إلى الشريف معتمد الدولة علي بن جعفر بن غسان، المعروف بابن العساف، وصرف يوحنا بن أبي الليث لأشياء نغمها عليه، وسعوا فيه عنده بأنه كان سببا فيها عمله أبو علي أحمد بن الأفضل من تفريق مافرقه من الأموال لأهله وأقاربه، واستخدم الحافظ أيضا أخا معتمد الدولة في نقابه الأشراف وجعله جليسا، وكان عنده أدب ومعرفة بعلم الفلك، وكان الحافظ يجب هذا العلم.

وفيها قبض على ابن عبد الكريم، تربية الأمر، فوجد له ثلاثمائة وستون منديلا مذهبة، وعلى مثالها ثلاثمائة وستون بذلة مذهب، فكان يلبس كل يوم بذلة، وكل منديل، وهي العمامة، على مسمار فضة، ووجد له خمسمائة نرجسية ذهب وفضة، ومائتا صندوق فيها ثياب ملونات، ومائة حسكة ذهب وفضة، ومن الجواهر ما يعجز عن وصفه.

سنة ثمان وعشرين وخمسة

فيها عهد الحافظ إلى ولده سليمان، وكان أسن أولاده وأحبهم إليه، وأقامه ليسد مكان الوزير ويستريح من مقاساة الوزراء وجفائهم عليه ومضايقتهم إياه في أوامره ونواهيته، فمات بعد ولاية العهد بشهرين، فحزن عليه مدة، ثم جعل ابنه حيدرة ولي عهده ونصبه للنظر في المظالم، فشق ذلك على أخيه حسن لأنه كان يروم ذلك لكثرة أمواله وتلاذه وحواشيه ومركبه، بحيث كان له ديوان مفرد، ومازالت عقارب العداوة تدب بينها حتى وقعت الفتنة بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية^(١٠٤) وكانت شوكة الريحانية قوية والجند يشنونهم خوفا منهم فاشتعلت نيران الحرب بين الفريقين، وصاح الجند: يا حسن يامنصور، يا للحسنية.

والتقى العسكران، فقتل بينهما ما يزيد على خمسة آلاف راجل، فكانت أول مصيبة نزلت بالدولة من فقد رجالها ونقص عدد عساكرها، ولم يسلم من الريحانية إلا من ألقى نفسه في بحر النيل من ناحية المقس، واستظهر حسن وصار الأمر إليه، فانضم له أوباش العسكر وزغارهم، وفرق فيهم الزرد وسأهم صبيان الزرد، وصاروا لا يفارقونه ويجفون به إذا ركب، ويلازمون داره إذا نزل.

فقامت قيامة الناس، وقبض على ابن العساف وقتله واختفى منه الحافظ وحيدرة، وجد في طلب حيدرة، وهتك بالأوباش الذين اختارهم حرمة القصر، وخرق ناموسه من كونه نغص على أبيه وأخيه، وصاروا يحسنون له كل رذيلة ويجروه على أذى الناس.

فأخذ الحافظ في تلافي الأمر مع حسن لينصلح، وعهد إليه بالخلافة في يوم الخميس لأربع بقين من شهر رمضان، وأركبه بالشعار، ونعت بولي

عهد المؤمنين وكتب له بذلك سجلا قرىء على المنابر، فكان يقال على المنابر: «اللهم شيد ببقاء ولي عهد المؤمنين أركان خلافته، وذلل سيوف الاقتدار في نصره وكفايته، وأعنه على مصالح بلاده ورعيته، واجمع شمله به وبكافة السادة إخوته، الذين أطلعتهم في سماء مملكته بدورا لا يغيرها المحاق، وقمعت بياسهم كل مرتد من أهل الشقاق والنفاق، وشددت بهم أزر الإمامة، وجعلت الخلافة فيهم إلى يوم القيامة».

فلم يزد ذلك إلا شرا وتعديا، فضيق على أبيه وبالغ في مضرته، فسير الخافض وفي الدولة إسحاق، أحد الأستاذين المحنكين، إلى الصعيد ليجمع ما قدر عليه من الريحانية فمضى واستصرخ على حسن، وجمع من الأمم ما لا يعلمه إلا الله، وسار بهم، فبلغ ذلك حسنا، فجهز إليه عسكرا عرمرما وخرج، فالتقى الجمعان، وهبت ريح سوداء في وجوه الواصلين، وركبهم عسكر حسن، فلم يفلت منهم إلا القليل، وغرق أكثرهم في البحر وقتلوا، وأخذ الأستاذ إسحاق وأدخل إلى القاهرة على جمل برأسه طرطور لبد أحمر، فلما وصل بين القصرين رشق بالنشاب، حتى مات، ورمي إليهم من القصر الغربي أستاذ آخر فقتلوه، وقتل الأمير شرف الأمراء.

فلما اشتد الأمر على الخافض عمل حيلة وكتب ورقة ورمها إلى ولده حسن، فيها: «يا ولدي أنت على كل حال ولدي، ولو عمل كل منا لصاحبه ما يكره الآخر ما أراد أن يصيبه مكروه، ولا يحملني قلبي، وقد انتهى الأمر إلي أن أمراء الدولة فلانا وفلانا — وسأهم له — وأنت قد شددت وطأتك عليهم وخافوك، وأنهم معولون على الفتك بك، فخذ حذرك يا ولدي».

فلما وقف حسن على الورقة قامت قيامته، فلما اجتمع أولئك الأمراء في داره للسلام عليه أمر صبيان الزرد الذين اختارهم وصار يثق بهم

فقتلوهم بأجمعهم، وأخذ ما في دورهم، فاشتدت مصيبة الدولة بفقد من قتل من الأمراء الذين كانوا أركان الدولة، وهم أصحاب الرأي والمعرفة، فوهت واختلت لقلة الرجال وعدم الكفاة.

ومن حين قتل حسن الأمراء تخوفه باقي الجند، ونفرت نفوسهم منه فإنه كان جريئاً عنيفاً بحاثاً عن الناس يريد إقلاب الدولة وتغييرها لتقدم أصحابه، وأكثر من مضادة الناس، وقتل سراج الدين أبا الثريا نجماً في يوم الخميس ثامن شوال، وكان أبو الثريا في أول أمره خاملاً في الناس، ثم سمع قوله في العدالة أيام الأمر، فلما قبض أحمد بن الأفضل على أبي الفخر وسجنه عنده بدار الوزارة، لأنه كان الداعي أيام الأمر، طلب من يكون داعياً، فاستخدم نجماً هذا ولم يقف على ما كان عنده من الدهاء، فلما كان في وزارة يانس جمع إليه الحكم مع الدعوة، وصار يدبر الدولة، وحسن عنده نصره طائفة الاسماعيلية والانتقام ممن كان يؤذيهم وجعل لهم زمماً قتله حسن بن الحافظ لما قتل الشريف بن العباس، وأخذ نجم يعادي أمراء الدولة ورؤساءها ولا ينظر في عاقبة — وكانوا قد حسدوه على قربه من الحافظ وتمكنه منه ومطاوعته له بحيث لا يعمل شيئاً إلا برأيه — فلما تمكن حسن بن الحافظ أغروه به فقتله وقتل معه جماعة، ورد القضاء لابن ميسر وخلع عليه في يوم الخميس ثاني ذي القعدة.

وفيها مات القاضي المكين أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسين بن حديد بن حمدون الكثاني قاضي الاسكندرية بثغر رشيد، وقد عاد من القاهرة في جمادى الآخرة، ومولده سنة اثنتين وستين وأربعمائة، وكانت له مدة في القضاء، وهو الذي كان سبياً في اعتقال أبي الصلت أمية الأندلسي، وقد ذكره السلفي^(١٠٥) وأثنى عليه، ورثي بعده قصائد.

وفيها مات أبو عبد الله الحسين بن أبي الفضل بن الحسين الزاهد

الناطق بالحكم، المعروف بابن بشرى الجوهري، الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ ابن الواعظ، في جمادى الأولى، وكان حلو الوعظ، إلا أنه تعرض في آخر عمره لما لا يعينه، فنفاه الحافظ إلى دمياط، وذلك أن الأمر لما مات ترك جارية حاملا، فقام الحافظ بعده في الخلافة على أن يكون كفيلا للحمل حتى يكبر، فاتفق أنه ولد وخافت أمه عليه من الحافظ، فجعلته في قفة من خوص وجعلت فوقه بصلا وكرائثا وجزرا حتى لا يفتن به، وبعثته في قماطة تحت الحوائج في القفة إلى القرافة، وأدخل به إلى مسجد أبي تراب الصواف، وأرضعته المرضعة، وخفي أمره عن الحافظ حتى كبر، وكان يعرف بين الصبيان بقفيفة، فلما حان نفعه نم عليه ابن الجوهري هذا إلى الحافظ، فأخذ الصبي وفصده، فمات، وخلع على ابن الجوهري ثم نفاه إلى دمياط فمات بها.

سنة تسع وعشرين وخمسة

فيها عظم أمر حسن بن الحافظ وقويت شوكته، وتأكدت العداوة بينه وبين من بقي من الأمراء والأجناد واشتد خوفهم منه، وعزموا على خلع الحافظ من الخلافة وخلع ابنه حسن من ولاية العهد، وعزله عن الأمر، فاجتمعوا بين القصرين، وهم نحو العشرة آلاف مابين فارس وراجل، وبعثوا إلى الحافظ فشكوا ما فيه ابنه حسن وأرادوا إزالته عنهم، فعجز حسن عن مقاومتهم ولم يبق بدا من الفرار منهم إلى أبيه، فصار إليه، وكان قد نزل بالقصر الغربي، ففتح سردابا بين القصرين ووصل إلى أبيه بالقصر الشرقي من تحت الأرض، وتحصن بالقصر، فبادر الحافظ بالقبض عليه وقيده، وأرسل إلى الأمراء يخبرهم بالقبض على حسن، فأجمعوا على طلبه ليقتلوه، فبعث إليهم يقبح مرادهم منه أن يقتل ولده، وأنه قد أزال عنهم أمره، وضمن لهم أنه لا يتصرف أبدا، ووعدهم بالزيادة في الأرزاق والاقطاعات، فلم يقبلوا ذلك، وقالوا: إما نحن وإما هو، وأحضروا الأحطاب والنيران لإحراق القصر، وبالغوا في الجرأة على الحافظ، فلم يجد

من ينتصر به عليهم لأنهم أنصاره وجنده الذين يستطيل بهم على غيرهم، فألجأته الضرورة إلى أن استمهلهم ثلاثة أيام ليتروى فيما يعمل.

فراى أنه لا ينفك من هذه النازلة العظيمة إلا بقتل ابنه لتتحسم مادة المباينة بينه وبين العسكر التي لا يأمّن إن استمرت أن تأتي على نفسه هو، فإنهم لم يبرحوا من بين القصرين، فاستدعى طبيبه: أبا منصور وابن قرقة، فبدأ بأبي منصور اليهودي وفاوضه في عمل سقية قاتلة فتخرج من ذلك وأنكر معرفته كل الإنكار، وحلف برأس الخليفة وعلى التوراة أنه لم يقف قط على شيء من هذا، فتركه وأحضر ابن قرقة، وكان يلي الاستعمالات بدار الديباج، وخزائن السلاح والسروج، وفاوضه في ذلك، فقال: الساعة، ولا يتقطع منها الجسد بل تفيض النفس لاغير، فأحضرها من يومه، وألزم الحافظ ابنه حسنا بمن ندبه من الصقالبة، فأكرهوه على شربها، فمات في يوم الثلاثاء عشرين جمادى الآخرة.

وقيل للقوم سرا: قد كان ما أردتم فامضوا إلى دوركم، فلم يثقوا بذلك، وقالوا لا بد أن يشاهده منا من نثق به، وندبوا منهم أميرا يعرف بالجرأة والشرف يقال له المعظم جلال الدولة محمد، ويعرف بجلب راغب الأمري، فدخل إلى حيث حسن بن الحافظ فإذا هو مسجى بشوب ملاءة، فكشف عن وجهه وأخرج من وسطه سكيناً وغرزه في عدة مواضع من بدنه حتى تيقن أنه ميت، وانصرف إلى أصحابه ففرقوا^(١٠٦).

وكان تاج الدولة بهرام الأرمني قد انفلت من حسن بن الحافظ وولي الغربية، فلما علم أن النفوس جميعها من البدو والحضر قد انحرفت عن حسن، جمع مقطعي الغربية والأرمن والعربان وطلب القاهرة، ويقال كان ذلك بمباطنة من الحافظ، فما وصل إلى القاهرة حتى عابت حشوده في القرى والضياح ونهبوها.

وعندما وصل إلى القاهرة، يوم الخميس وقت العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة التف عليه من بها من الأمراء والأجناد وأبادوا أكثر الجيوشية والاسكندرانية والفرجية ومن يقول بقولهم من الغز الغرباء، ونهب أبواش الناس ماقدروا عليه.

ولما قتل حسن وسكنت الدهماء قبض الحافظ على الطبيب ابن قرقة وقتله بخزانة البنود، وارتجع جميع أملاكه وموجوده، وكان يلي الاستعمالات بدار الديدياج وخزائن السلاح والسروج، وأنعم على أبي منصور الطبيب وجعله رئيسا على اليهود وصارت له نعم جليلة.

وفيها كانت وزارة بهرام الأرمني النصراني الملقب تاج الدولة، وكان السبب في ولايته الوزارة أنه جرت فتنة بين الأجناد والسودان عندما قتل حسن بن الحافظ قوى فيها السودان على الأجناد وأخرجوهم من القاهرة، فإن السودان كانوا مع حسن دون الأجناد، فإنهم الذين حملوا أباه الحافظ على قتله، وقدم بهرام بالحشد كما تقدم، فوجد حسنا قد مات، فمسكه الأجناد بظاهر القاهرة وأدخلوه على الحافظ لدين الله في يوم الخميس، بعد العصر، الحادي عشر من جمادى الآخرة لتولية الوزارة، فخلع عليه في يوم الأحد، رابع عشرة، ثم خلع عليه ثانيا يوم الخميس ثامن عشرة، خلع الوزارة، ونعت بسيف الاسلام تاج الخلافة، وهو نصراني، مع كراهة الحافظ لذلك، لتسكن الفتنة، ولم يرد إليه شيئا من الأمور الشرعية، فلم يدخل في مشكل لأنه كان عاقلا سيوسا حسن التدبير.

وتقدم كثير من حواشي الحافظ إليه ينكرون عليه ولاية بهرام مع كونه نصرانيا، وقالوا: لا يرضى المسلمون بهذا، ومن شرط الوزير أن يرقى مع الإمام المنبر في الأعياد ليزرر عليه المزرة الحاجزة بينه وبين الناس، والقضاة نواب الوزير من زمن أمير الجيوش، ويذكرون دائما النيابة عنه في الكتب الحكمية النافذة إلى الآفاق وكتب الأنكحة فقال: إذا رضينا

نحن فمن يخالفنا، وهو وزير السيف، وأما صعود المنبر فيستنب عنه قاضي القضاة، وأما ذكره في الكتب الحكمية فلا حاجة إلى ذلك ويفعل فيها ما كان يفعل قبل أمير الجيوش.

فشق على الناس وزارته، وتناول النصراني في أيامه على المسلمين، وكان هو قد أحسن السيرة وساس الرعية، وأدى الطاعة للخليفة، وأنفق في الجند جملة من الأموال، ودبر الأمور فاستقامت له الأحوال، وراسله الملك، وزال ما كان في البلد من الفتن، فلم ينكر عليه سوى أنه نصراني.

وكان يقعد يوم الجمعة عن الصلاة فلا يحضر، بل يعدل إلى مكان بمفرده حتى يصلي الخليفة بالناس، وأقبل الأرمن يردون إلى القاهرة ومصر من كل جهة حتى صار بها منهم عالم عظيم، ووصل إليه ابن أخيه، وكان يعرف بالسبع الأحمر، فكثر القيل والقال، وأطلق أسيراً من الفرنج كان من أكابره، فأنكر الناس ذلك ورفعوا فيه النصائح للحافظ، وأكثروا من الإنكار.

وكان رضوان بن ولخشي حينئذ صاحب الباب، وهو شجاع كاتب، فبلغ بهرام أنه يهزأ به في قوله وفعله، فثقل عليه وأخذ يعمل على إخراجه من القاهرة، وولى أخاه الباساك قوص (١٠٧).

وفيها توفي الأديب أبو نصر ظافر بن القاسم بن منصور بن عبد الله الجروي الجذامي الاسكندراني المعروف بالحداد (١٠٨) بمصر.

سنة ثلاثين وخمسة

فيها أخرج بهرام الأمير رضوان بن ولخشي من القاهرة لولاية عسقلان، وقيل بل كان خروجه في سلخ رجب من السنة الماضية، فلما وصل إليها وجد فيها جماعة من الأرمن قد وصلوا في البحر يريدون القاهرة،

فناكدهم ومنع كثيرا منهم، فبلغ ذلك الوزير بهرام، فشق عليه، وصرفه عن عسقلان، واستدعاه، فقدم إلى القاهرة، وشكره الناس على منعه الأرمن من الوصول إلى القاهرة، فلم يطق بهرام إقامته معه، فولاه الغربية في صفر إبعادا له عنه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية جربة^(١٠٩)، ونازل طرابلس الغرب فانهمز عنها^(١١٠).

سنة إحدى وثلاثين وخمسةائة

فيها تكاثر حضور أقارب بهرام وإخوته، وأهله وقومه، ومجيئهم من ناحية تل باشر وكانوا مقيمين بها، ولهم فيها كبير منهم يتولى أمرهم، وقدموا أيضا من بلاد الأرمن، حتى صار منهم بديار مصر نحو الثلاثين ألف إنسان، فعظم ضررهم بالمسلمين وكثرت استطالتهم، واشتد جورهم، وتظاهروا بدين النصرانية، وأكثروا من بناء الكنائس والديارات، وصار كل رئيس منهم يبني له كنيسة بجوار داره.

وتفاقم الأمر، فخاف الناس منهم أن يغيروا الملة الاسلامية، ويغلبوا على البلاد فيردوها دار كفر، فتتابعوا في الشكاية من أهل بهرام وأقاربه.

ووردت الأخبار من قوص بأن الباساك، أخا بهرام قد جار على الناس واستباح أموالهم، وبالغ في أذيتهم وظلمهم، فاشتد ذلك على الناس، وعظم على الأمراء مانزل بالمسلمين، فبعثوا إلى أبي الفتح رضوان بن ولخشي — وكان مقديما (يعرف) فيهم لكثرة نعوته بفحل الأمراء، وهو يومئذ يتولى الغربية — يشكون إليه ما حل بالمسلمين ويستحثونه على المصير وإنقاذهم مما نزل بهم.

فلما وصلت إليه كتب الأمراء تشمر لطلب الوزارة، ورقى المنبر خطيبا

بنفسه فخطب خطبة بليغة حرض فيها الناس على الجهاد في سبيل الله، والاجتماع لقتال بهرام وشيعته النصارى من الأرمن، وكان حينئذ بمدينة سخا^(١١١) ثم نزل وحشد الناس من العربان وغيرهم حتى استجاب له نحو من ثلاثين ألفاً، فأخرج لهم كتب الخليفة الحافظ إليه بالتقدم بالمسير ونزع الوزارة من يد بهرام إذ تبين أنه ليس من أهل الملة، وسار بهم إلى دجوة^(١١٢)، وبهرام لا ينزعج.

فلما قرب رضوان جمع بهرام الأرمن إليه وقال لهم: اعلموا أننا قوم غرباء لم نزل نخدم هذه الدولة، والآن فقد كثر بغضهم لأيماننا، وما كنت بالذي أكون عبد قوم وأخدمهم من حال الصبا، فلما بلغني الكبر أقاتلهم، لا ضربت في وجوههم بسيف أبداً، سيروا وأخذ امراء الدولة وعساكرها يخرجون شيئاً بعد شيء إلى رضوان.

واجتمع بهرام بالخليفة وفاوضه في أمره، فقال تغلبني الاسلام عليك فأيس حينئذ، وجمع الأرمن، وكانوا كلهم منقادين إليه لا يخالفونه في شيء من الأشياء، وسار بهم نحو بلاد الصعيد يريد أخاه الباساك بقوص، قاصداً أنه يجتمع به ويمضون إلى أسوان فيتملكونها ويتقوون بالنوبة أهل دينهم، وقد ذكر أن بهرام خرج يريد محاربة رضوان في عساكر مصر.

فلما وصل بعسكر القاهرة إلى رضوان رأوا المصاحف قد رفعها رضوان فوق الرماح، فصاروا بأجمعهم إلى رضوان باتفاق كان بينهم وبينه من قبل ذلك، فعاد بهرام إلى القاهرة وأخذ ماخف حمله، وخرج من باب البرقية^(١١٣) يوم الأربعاء، وقت العصر، حادى عشر جمادى الأولى، وسار يريد الصعيد وقد أوسق المراكب بما يحتاج إليه فعندما رحل اقتحم رعاك الناس وأوباشهم إلى دار الوزارة فنهبوها وهتكوا حرمتها، وعملوا كل مكروه، فكان هذا أول نهب وقع في دار الوزارة، وامتدت الأيدي إلى دور الأرمن التي كانوا قد عمروها بالحسينية خارج باب الفتوح^(١١٤)، فنهبوها، ونهبوا كنيسة الزهري^(١١٥) ونشوا قبر البطرك، أخي بهرام.

وطار خبر انهزام بهرام في سائر إقليم مصر، فوصل الخبر بذلك إلى قوص قبل وصول بهرام، فثار المسلمون بها على الباساك وقتلوه ومثلوا به، وجعلوا في رجله كلبا ميتا، وألقوه على مزبلة، فلما كان بعد قتله بيومين قدم بهرام في طائفة الأرمن، وهم نحو الألفي فارس، رماة، فرأى أخاه على المزبلة كما ذكر، فقتل جماعة من أهل قوص ونهبها، وسار عنها إلى اسوان، فنزل بالأديرة البيض، وهي أماكن حصينة في غربي أخميم، فتفرق عنه عدة من الأرمن وساروا يريدون بلادهم.

وأما رضوان فإنه لما وصل إلى القاهرة وقف بين القصرين، واستأذن الحافظ فيما يفعله، فأشار بنزوله في دار الوزارة، فنزلها، وخلع عليه خلع الوزارة يوم الجمعة ثالث عشر جمادى الأولى، ونعت بالسيد الأجل الملك الأفضل، فاستدعى بالأموال من الخليفة، وأنفق في الجند، ومهد الأمر، ورضوان أول وزير لقب بالملك.

فلما كان في اليوم الثالث من استقراره في الوزارة سير أخاه الأوحده ابراهيم ومعه العسكر شرقا وغربا، والأسطول بحرا، في طلب بهرام، وييده أمان له ليعود مكرما وطائفته على إقطاعاتهم، فسار إلى الأديرة، وتقرر الحال من غير قتال على إقامة بهرام بها، وذلك أن أسوان امتنعت عليه بكنز الدولة وأهلها، فاضطر إلى الإقامة بالأديرة وقد فارقه أكثر الأرمن، فمنهم من سار إلى بلاده ومنهم من أقام بأرض مصر ليكونوا فلاحين، فسأل لهم مواضع يسكنونها فأفردت لهم جهات، منها سملوط^(١١٦) وإيوان^(١١٧) وأقلوسنا^(١١٨) والبرجين^(١١٩) في صعيد مصر، وضيعة أخرى بأعمال المحلة، وأقام بهرام بالأديرة البيض ومعه أهله وولده.

وفيهما صرف أبو عبد الله محمد بن ميسر عن قضاء القضاة في يوم الأحد لسبع خلون من المحرم، والوزير إذ ذاك بهرام، ونفي إلى تنيس،

فأقام بها إلى يوم الاثنين ثاني ربيع الأول، وقتل، وهو من قيسارية، وقدم منها مع ابنه وهو صغير في وزارة أمير الجيوش بدر الجمالي عند حضوره إلى المستنصر في سني الشدة، وبعثه إلى البلاد الشامية لإحضار أرباب الأموال واليسار، وكان من جملة من أحضر والد القاضي، وكان له مال جزيل، ففوض إليه خطابة الجامع بمصر، وفتح دار وكالة وأقام بها مدة حتى مات، فترقى ولده إلى أن ولي القضاء عدة مرار، وكان له أفضال ومكارم، وحصلت له وجاهة ورتبة جلييلة، وضرب دنانير كثيرة كان اقترحها على الخليفة الأمر^(١٢٠) وهو الذي أخرج الفستق الملبس بالحلوى، فإنه بلغه أن أبا بكر محمد بن علي المدائني عمل الكعك الذي قال له «افطن له» وعمل عوضا من حشو السكر دنانير، فلما مد السباط في يوم العيد قال أحد الخدام لصديق له كان على السباط: افطن له، ففهم عنه وتناول من ذلك، وصار يخرج الذهب من فمه ويخفيه حتى تنبه الناس لذلك، فتناولوا بأجمعهم منه، فأراد القاضي ابن ميسر أن يشبه بأبي بكر المدائني في ذلك، فعمل صحنا منه لكن جعل فستقا قد لبس حلوى وذلك الفستق من ذهب، وأباحه أهل مجلسه، ولم يقدر على عمل ذلك سوى مرة واحدة.

ثم إنه لما تناهت مدته عاداه رجل يعرف بابن الزعفراني، فتم عليه عند الحافظ بأن أحمد بن الأفضل لما كان قد اعتقل الحافظ وجلس للهناء ودخل عليه الشعراء كان فيهم علي بن عباد الإسكندري، وأنه أنشد قصيدة يذم فيه خلفاء مصر ويذكر سوء اعتقادهم، منها في ذم الحافظ:

هذا سلبيا نكم قد رد خاتمه
واسترجع الملك من صخر بن إبليس

فعندما قال هذا البيت قام ابن ميسر وألقى عرضيته طربا بهذا البيت،

فأمر الحافظ بإحضار هذا الشاعر، وقال: أنشدني قصيدتك: فأنشدها إلى أن بلغ فيها إلى قوله:

«ولا ترضو عن الخمس المناحيس» يعني الحافظ وابنيه وأباه وجده، فأمر الغلمان بلكمه، فلكموه حتى مات بين يديه، وقبض على ابن ميسر ونفي ثم قتل، وكان ينعت بجلال الملك، وكانت علامته «الحمد لله على نعمه». وفيها مات أبو البركات بن بشرى الواعظ المعروف بابن الجوهري في جمادى الأولى عن إحدى وتسعين سنة.

وفيها ولي قضاء القضاة أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عقيل، ونعت بقاضي القضاة الأعز أبي المكارم.

وفيها ثار بناحية برقة رجل من بني سليم وادعى النبوة، فاستجاب له خلق كثير، وأملى عليهم قرآنا منه: إنما الناس بالناس، ولولا الناس لم يكن الناس، والجميع رب الناس، ثم تلاشى أمره وانحل عنه الناس.

وفيها جلس الوزير رضوان في ذي القعدة لاستخدام المسلمين في المناصب التي كانت بأيدي النصارى، واستجد ديوان الجهاد^(١٢١) واهتم بتقوية الثغور واستعد لتعمير عسقلان بالعدد والآلات، وأشاع الخروج إلى الشام لغزو الفرنج، وأظهر من الاعتناء بذلك ما لا يوصف، وكان قد مهد الأمور، وأعاد الناس إلى ما كانوا عليه من الطمأنينة بحسن سيرته، وكثرة عدله وعمارته البلاد، وقوة نفسه وشجاعته، وأحضر الدواوين وكتبها ورتبها، ودبر الأمور احسن تدبير.

وكان من جملة الضمان في أموال الدولة هبة الله بن عبد المحسن الشاعر، فلما عرض حسابه وجد قد انكسر عليه مال في ضمانه، فكتب له في المجلس:

أنشأ عرو وصنعتي الأدب
وضمان مثلي المال لا يجب
أنامستميحكم وليس على
من جاء يطلب رفقكم طلب
وإذا تأخر الباقي علي فما
من حاصل ورق ولا ذهب

فسأحه فيما عليه من الباقي.

وفيهما أحضر من الصعيد الأعلى في رمضان جماعة تقدمهم رجل
بجاوي يدعى فيه أصحابه أنه إله فصلبوا.

سنة اثنتين وثلاثين وخمسةائة

فيها أفرج الوزير رضوان عن شمس الخلافة مختار الأفضلي، صاحب
باب بهرام، من الاعتقال وولاه الاسكندرية.

فيها تشدد رضوان على النصارى من أصحاب بهرام وصادرهم،
وقتلهم بالسيف، وأباد أكثرهم وتطلع إلى تقديم أرباب المعارف من
أرباب السيوف والأقلام، وأحسن إليهم، وزاد في أرزاقهم.

ووجد نصرانيا قد توصل في أيام بهرام إلى ديوان النظر، يعرف بالأخرم،
وبذل في كل يوم ألف دينار سوى المؤن والغرامات، فأذى المسلمين
وشق عليهم، فصرفه رضوان واستخدم بدله رجلا يقال له المرتضى
المحنك بغير ضمان.

وتقدم إلى ديوان الإنشاء بإنشاء سجل في الوضع من النصارى
واليهود، فأنشأه أبو القاسم ابن الصيرفي، منعوا فيه من إرخاء الذوائب
وركوب البغلات ولبس الطيالسة، وأمر النصارى بشد الزنابير المخالفة

لألوان ثيابهم، وألا يجوزوا على معابد المسلمين ركباناً، فما رئي في أيامه يهودي ولا نصراني يجوز على الجامع راكباً، لكنه ينزل ويقود دابته، وأمر أن تؤخذ الجزية من فوق مساطب وهم وقوف أسفلها، ومنعهم من التكني بأبي الحسن وأبي الحسين وأبي الطاهر، وأن يبيضوا قبورهم وضمن ذلك كله السجل، فعمل به.

وفيها نزع السعر لتوقف النيل، فقال الناس مجاعة، فأمر الحافظ بفتح الأهراء، والبيع منها على الناس بأوسط الأثمان، فلم يمض الوزير بذلك، وأخذ يهين حواشي الخليفة إذا حضروا إليه ويقدم في مذهبه، لأنه كان سنياً، وكان أخوه الأوحى إبراهيم إمامياً.

فلما كثر ذلك منه انزعج الخليفة ولم يظهر تغيراً ويعمل في الخلاص منه، فتنافر كل منهما من الآخر.

وكان رضوان خفيفاً طائشاً لا يثبت، فهم بخلع الحافظ وقال ماهو بخليفة ولا إمام، وإنما هو كفيل لغيره، وذلك الغير لم يصح، وأحضر الفقيه أبا الطاهر بن عوف، وابن أبي كامل فقيه الامامية، وابن سلامة داعي الدعاة، وفاوضهم في الخلع واستخلاف شخص عينه لهم، وألزم كلا منهم أن يقول ما عنده فقال ابن عوف: الخلع لا يجوز إلا بشروط تثبت شرعاً، وقال ابن أبي كامل: السلطان، أبقاه الله، يحملني على أن أتكلم على غير مذهبي في الإمامة، قال: لا بل عمل مذهبك؟ فقال: مذهبي معلوم، يعني أن الإمامية لا يعتقدون حق الخلافة في بني اسماعيل ابن جعفر، لموته في حياة أبيه وانتقال الإمامة للحاضر من إخوته، ولأنه لا ينبغي لمن لم تكن له إمامة أن يخلع، فخلص من هذا وقال الداعي: أنا داعي القوم ومولى لهم، وما يصح لي خلعه، فإني أصير فيما مضى كأني أدعو لغير مستحق، فأكون قد كذبت نفسي فلا أقبل الآن، وأستخصم

بذلك، ولا يؤثر قولي فيما تريدون، ولم تجر العادة على الفاطميين بخلع حتى ناتي به.

فقابله على هذا القول بالسب واقامه أقبح قيام، فقال الفقيه النحاس — وكان حاضرا — كل عزيمة، وحمله على خلع الحافظ، فبلغ ذلك المجلس الحافظ.

وفيها أحضرت من تنيس امرأة بغير ثديين وفي موضع ثديها مثل الحلمتين، فصارت إلى مجلس الوزير رضوان وأخبرته أنها تصنع برجليها جميع ما يعمل باليدين من رقم وخط وغير ذلك، فجاء لها في المجلس بدواة فتناولت برجلها اليسرى الأقلام قلما قلما، ثم تناولت السكين برجليها وبرت قلما، واستدعت ورقة وأمسكتها برجلها اليمنى وكتبت بالرجل اليسرى رقعة بأحسن خط تكتبه النساء، وحمدت الله في آخرها، وناولتها الوزير، فإذا فيها سؤال بأن يزداد في راتبها، فوقع لها خلف الرقعة بها سألت وأعادها إلى بلدها.

وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة (به) في ثغر الاسكندرية، وجعل في تدريسها الفقيه أبا طاهر بن عوف.

سنة ثلاث وثلاثين وخمسةائة

فيها زاد السعر وبلغ القمح ثلاثة دنانير للإردب، فبيعت الغلال التي كان الأفضل خزنها، وقد تغيرت وأرادوا رميها في النيل، فكانت تقطع بالفؤوس وتباع بأربعين دينارا كل مائة إردب، وكذلك الأرز الذي كان مخزونا بمصر فإنه أبيع بعشرة دنانير المائة، فوجد الناس بذلك رفقا.

فيها كثر سعي الوشاة بين الحافظ والوزير فتحوف كل منهما من

الأخر، وقبض الوزير على عدة من خواص الحافظ، منهم أبو المعالي بن قادوس، وابن شيبان المنجم، ورئيس اليهود، وجماعة، فقتلهم، فسير الحافظ من أحضر إليه بهرام في رمضان، فلما حضر أسكنه عنده بالقصر وأكرمه، وشق ذلك على رضوان، وكان الحافظ قد تطف برضوان في أمر بهرام وقرر معه أن يستدعيه وينزله في القصر، وحلف له أنه لا يوليه أمراً ولا يمكنه من تصرف، فتسامح رضوان في أمره واستدعي فحضر بأهله وأنزل في دار بالقصر قريبة من المحول^(١٢٣) وهو قريب من سكن الحافظ، فكان يسحضره في غالب الليالي ويستشيره ويعمل برأيه.

ولما كان يوم عيد الفطر ركب الوزير مع الحافظ وعليه من الملابس ما لم يلبسه أحد من الوزراء في مثل ذلك اليوم، وعاد إلى القصر وفي نفس الحافظ منه أشياء تبينها رضوان في وجه الحافظ وعلمها منه، فاشمأزت نفسه مع ما كان فيه من الطيش، فركب في تاسع شوال وزحف إلى القصر، فكلمه الخليفة من بعض طاقات المنظرة التي تطل على باب الذهب، وجرى بينها كلام اجترأ فيه على الخليفة، وعاد إلى داره بعد أن احتاط بالقصر واحتفظ بالأبواب فامتعض الناس لذلك بالقاهرة ومصر، وكثرت الأراجيف.

وفي تلك الحالة نزل بعض أولاد الحافظ من القصر هاربا إلى رضوان، وكان شيخا ومعه ولد له، ليقيمه خليفة، فلم يكثر به، وأحضر اسماعيل بن سلامة الداعي، وقال له: ماتقول في هذا الرجل، هل يصلح لما التمسه؟ فقال: الخلافة لها شروط ونواميس ما في هذا منها شيء، وتحتاج إلى نصوص، ولولا أن مولانا الأمر نص على مولانا الحافظ وأودعه سر الخلافة لما ثبتت فيه ولا استجاب له الناس، فلم يحصل سوى أنه كان مشؤوما على نفسه وأهله، فإن الحافظ لما بلغه ذلك قتله وقتل جماعة منهم كثيرة.

ثم إن الحافظ لما رأى فعل رضوان وتعدديه وكثرة من انضم إليه من العسكر عمل في التدبير عليه وأرسل إلى صبي من الجند يعرف بشومان، وكانت فيه شهامة وجرأة وهومن صبيان الخاص، فأحضره إليه من أحد السراييب سرا وأرسله إلى علي بن السلار، أحد أمراء الدولة، يأمره بالتدبير على رضوان، وأنفذ معه مالا إليه، ليستعين به على ذلك، وكان علي بن السلار عاقلا صاحب حزم ويقظة وحسن تأت مع قوة وصرامة.

فلما جاءه القاصد بالمال وبلغه عن الخليفة ما قال، انتهز الفرصة وأرسل إلى جماعة من صبيان الخاص وقرر معهم أن يجتمعوا ويدخلوا من باب زويلة كردوسا واحداً وهم يصيحون: الحافظ يامنصور، وفرق فيهم ما أرسله إليه الخليفة.

فلما كان يوم الاثنين، الثالث عشر من شوال، اجتمع بظاهر القاهرة منهم نحو العشرين وأقبلوا من باب زويلة يصيحون: ياللحافظ، الحافظ يامنصور، فما وصلوا إلى السراجين الذي يعرف اليوم بالشوائين، حتى صاروا نحو الخمسمائة، وما وصلوا بين القصرين إلا والعسكر جميعه من فارس وراجل معهم، ولم يبق من الصبيان والعوام أحد حتى خرج بالنساء، وأشرف النساء من الطاقات، وصاروا بأجمعهم يصيحون: ياللحافظية.

فلما سمع رضوان الضجيج أراد أن يركب، فمنعه بعض غلمانة، فأبى عليه لأنه كان واثقا بنفسه وبمن معه، وخرج وحده بغير سلاح ليس معه سوى سيف، فلقي الناس بنفسه وطردهم يمينا وشمالا، وظهر منه شجاعة تعجب منه من شاهدها، فإنه لقي ألوفاً من الناس بمفرده ولم يزل يحمل عليهم حملة بعد حملة إلى أن قتل منهم عدة، وكان أخوه ابراهيم قد بلغه الخبر، فركب من داره وأمسك عنه من يجيئه من ناحية قصر الشوك، وشدت الريحانية ورجعوا إليه من ناحية زيادة الجامع الحاكمي ودرب الفرنجية.

فلما طال عليه وتيقن أن القوم بأجمعهم قد تماثلوا على حربه، وكان قد انقضى من النهار أربع ساعات، وأشرف عليه الأستاذون من ناحية باب الريح من أعالي القصر يرشقونه بالنشاب ويرمونه بالطوب، تحير، وكان ابن أخته والي مصر، فبلغه الخبر، فقام بجميع غلمانة وسار لنجدة خاله، فوجد عند باب زويلة من بلغه الخبر بأنه لا يقدر على الوصول إليه، فسار من ناحية باب البرقية ومعه بوقات وطبول، فسمع إبراهيم، أخو رضوان، أصوات البوقات والطبول من جهة باب البرقية، فأنفذ إلى أخيه رضوان يقول له: قد تفرق علينا العسكر وجاء من ناحية قصر الشوك، وقد قاطع الراجل علينا من ناحية باب النصر.

فلما بلغ رضوان ذلك أيقن بالهلاك إن وقف، فما زال يتأخر قليلا قليلا، حتى صار في رحبة باب العيد عند دار سعيد السعداء، وبعث إلى داره، التي هي دار الوزارة من أخذ له شيئا منها على سبيل الخطف، وأوصى إلى أخيه، فانضم إليه هو ومن معه من أصحابه وفيهم أبو الفوارس وفزارة بن أبي غرة، وشاور بن مجير السعدي، وجماعة من خواصه، وخرجوا من باب النصر، فما هو إلا أن صار بظاهر القاهرة اقتحم الناس دار الوزارة ونهبوها حتى لم يتركوا فيها شيئا.

وما وصل رضوان إلى تربة أمير الجيوش، إلا وقد تلاحق كثير من المغفرة، وكان قد أسلف عند العرب أيادي وأفاض عليهم نعمة وأحسن إليهم إحسانا كثيرا في مدة وزارته، فأدركه رجل من العرب يقال له سالم ابن المحجل، أحد شياطين الإنس، وحسن له المسير إلى الشام.

واشتغل الناس بنهب دار الوزارة، وكان قد جمع فيها رضوان أكثر أموال ديار مصر وشحنها بالذخائر وأنواع السلاح والعدد والآلات والغلال، فانتهب جميع ذلك، وأحرقت أخشاب تعب الملوك في تحصيلها، وكان نهب دار الوزارة أول ضرر دخل على الدولة.

وطلب رضوان الشام، فدخل عسقلان وملكها وجعلها معقلة، وتوجه أخوه إلى الحجاز وأقام بها حتى مات، وسار ابن أخته إلى بغداد فأكرمه أصحاب الخليفة هناك، ولم يزل عندهم إلى أن مات.

وخرج رضوان من عسقلان ولحق بصلخد، فنزل على أمين الدولة كمشتكين، صاحبها فأكرمه وأبره وأقام عنده ثلاثة أشهر، ثم أنفذ إلى دمشق، واستفسد من الأتراك بها من قدر عليه.

وفيهما خربت الأتارب من زلزلة، وزلزلت دمشق أيضا.

وفيهما مات الأعز قاضي القضاة أبو المكارم أحمد بن عبد الرحمن بن أبي عقيل، في شعبان، فأقام منصب القضاء بغير قاض ثلاثة أشهر، ثم اختير الفقيه أبو العباس أحمد بن الحطيئة في ذي القعدة، فاشترط ألا يحكم بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك، وكان الوزير رضوان قد تقدم إلى الفقيه أبي عبد الله محمد بن عبد المولى بن أبي عبد الله محمد بن عقبه اللخمي، المعروف بابن اللبني^(١٢٤)، المغربي المالكي، أن يعقد الأنكحة، فلما كان في الحادي عشر من ذي القعدة قرر الحافظ في قضاء القضاة القاضي فخر الأمانة أبا الفضائل هبة الله بن عبد الله بن الحسين ابن محمد الأنصاري الأوسي، المعروف بابن الأزرق.

سنة أربع وثلاثين وخمسمائة

فيها عاد الأفضل رضوان بن ولخي من صلخد في جمع فيه نحو الألف فارس، وكان الناس في مدة غيبته يهتفون بعوده، فبرزت له العساكر ودافعوه عند باب الفتوح، فلم يطق مغالبتهم، فمضى إلى مصر ونزل على سطح الجرف المعروف اليوم بالرصد، وذلك يوم الثلاثاء مستهل صفر، فاهتم الحافظ بأمره، وبعث إليه بعسكر من الحافظية

والأمرية وصبيان الخاص، عدتهم خمسة عشر ألف فارس، مقدم القلب تاج الملوك قايباز، ومقدم الأمرية فرج غلام الحافظ، فلقبهم رضوان في قريب ثلاثمائة فارس، فانكسروا، وقتل كثير منهم، وغنم معظمهم، وركب أفقيتهم إلى قريب القاهرة، وعاد شاور إلى موضعه فلم يثبت، وأراد العود إلى صلخد فلم يقدر، لقلة الزاد وتعذر الطريق، فتوجه بمن معه من العربان إلى الصعيد، فأنفذ إليه الحافظ الأمير المفضل أبا الفتح نجم الدين سليم بن مصال في عسكر ومعه أمان، فسار خلفه، وما زال به حتى أخذه وأحضره إلى القصر آخر نهار الاثنين رابع ربيع الآخر، فعفا عنه الحافظ، ولم يؤاخذ أحدا من الأتراك الذين حضروا معه من الشام، واعتقله عنده بالقصر قريبا من الدار التي بها بهرام.

فيها أضيف لقاضي القضاة هبة الله بن حسن الأنصاري، في سابع عشر جمادى الآخرة تدريس دار العلم بالقاهرة، فمضى إليها، وكان مدرسا أبو الحسن علي بن اسماعيل، فجرت بينهما مفاوضات جرت إلى الخصام الشنيع، فخرج القاضي إلى القصر ماشيا وقد تحقرت ثيابه وسقطت عمامته، فعظم على الحافظ خروجه في الأسواق على هذه الهيئة، وغضب لذلك، فصرفه ورسم عليه، وغرمه مائتي دينار، وألزمه داره، وأمر بطلب أبي الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري، فخلع عليه وقرره مكانه، ونعته بالموفق في الدين، ولم يكتب له سجل، فأقام إلى آخر ذي الحجة، ولم يتناول على القضاء معلوما، وكان جاري الحكم في كل شهر أربعين دينارا، وقنع بجاري التقدمة على الدعاة وهو ثلاثون دينارا في الشهر.

فيها ولي الحافظ لدين الله الأمير المفضل نجم الدين أبا الفتح سليم ابن مصال اللكي تدير الأمور.

سنة خمس وثلاثين وخمسة

فيها هلك بهرام الأرمني بالقصر، وكان الحافظ لما أقدمه من الصعيد إلى عنده أنزله في القصر ولم يمكنه من التصرف، وكان يشاوره في تدبير أمور الدولة فيعجبه رأيه وحزمه وعقله، فلما مات في العشرين من ربيع الآخر حزن عليه حزنا كثيرا ظهر بسببه على القصر غمة، وهم أن يغلق الدواوين ولا يفتحها ثلاثة أيام، وأحضر بطرك الملكية وأمره أن يجهز بهرام، فقام يتجهيزه، وأخرج نصف النهار في تابوت وعليه ثوب ديباج أحمر، ومن حوله النصارى يبخرون باللبان والصندروس والعود، وجميع الناس مشاة، فلم يتأخر أحد من أعيان الوقت عن جنازته.

وخرج الخليفة على بغلة شهباء وعليه عمامة خضراء، وثوب أخضر بغير طيلسان، فسار خلف التابوت، وسار والناس تبكي والأقساء يعلنون بقراءتهم، والخليفة سائر، إلى دير الخندق من ظاهر القاهرة (١٢٥) فنزل الخليفة عن بغلته وجلس على شفير القبر وبكى بكاء شديدا.

وكان عاقلا مقداما في الحرب، حسن السياسة، جيد التدبير، وكان أولا يقوم بأمر الأرمن، وسكناهم يومئذ في ناحية تل باشر، فتعصب عليه جماعة منهم وولوا غيره، فخرج مغضبا وقدم إلى القاهرة، فترقى في الخدم إلى أن ولي المحلة، فقام بولايتها، ومنها سار في نوبة حسن إلى القاهرة ومعه من الأرمن نحو الألفين يقولون بقوله، فاستوزره الحافظ.

وفيها مات الفقيه أبو الفتح سلطان بن ابراهيم بن رشا المقدسي في آخر جمادى الآخرة.

سنة ست وثلاثين وخمسة

في ليلة الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الأول سقطت صاعقة أحرقت
ركن منارة الجامع العتيق.

في شعبان غلت الأسعار وعدم القمح والشعير، فبلغ القمح كل
إردب إلى تسعين درهما والدقيق إلى مائة وخمسين الحملة^(١٢٦)، والخبز إلى
ثلاثة أرتال بدرهم، والويبة من الشعير إلى سبعة دراهم المائة، والزيت
الحار إلى درهم ونصف الرطل، والقلقاس كل رطلين بدرهم، وعدم
الفروج والدجاج فلم يقدر على شيء منه، وعم الوباء وكثر الموتان.

وفيهما مات أحمد بن مفرج بن أحمد بن أبي الخليل الصقلي^(١٢٧) الشاعر،
المعروف بتلميذ ابن سابق، وكان فاضلا ذكيا يتصرف في عدة فنون، وله
رسائل حسنة وشعر جيد.

وكان الشعراء في أيام الحافظ قد أطنبوا في المديح وتناهوا في إطالة
القصائد حتى صار الإنشاد يؤدي إلى قصر الوقت الذي جرت العادة
باستماع أشعارهم فيه، لطول مثولهم بالخدمة، فخرج الأمر إليهم
بالاختصار فيما ينشدونه من الأشعار، فقال أحمد بن مفرج يخاطب
الخليفة:

أمرت أن نصوغ المدح مختصرا
لم لأمرت ندي كفيك يختصر
والله لا بد أن تجري سوابقنا
حتى يبين لنا في مدحك الأثر

فأمروا بالاستمرار على ما هم عليه من الإطالة في الإنشاد.

سنة سبع وثلاثين وخمسة

فيها عظم الوباء بديار مصر، فهلك فيه عالم لا يحصى عدده كثرة.

وفيها بعث الحافظ الأمير النجيب رسولا إلى رجار ملك صقلية لمحاربه أهل صقلية، وكان رجار فيه فضيلة، وأمر فصنفت له تصانيف، وكان عنده محبة للأدب، ومدحه ابن قلاص الشاعر (١٢٨) وغيره.

سنة ثمان وثلاثين وخمسة

فيها خرج محمد بن رافع اللواتي بنواحي البحيرة، فاجتمع له عدد كثير من الناس، فخرج إليه طلائع بن رزيك، وهو يومئذ والي البحيرة، فكانت بينهما حروب قتل فيها.

فيها غلت الأسعار بمصر.

سنة تسع وثلاثين وخمسة

فيها سير الحافظ الرشيد أبا الحسين أحمد بن الزبير (١٢٩) رسولا إلى اليمن بسجل يقرؤه عليهم، فخرج في ربيع الأول.

وفيها خرج أبو الحسين بن المستنصر إلى الأمير خارتاش الحافظي صاحب الباب وقال له: اجعلني خليفة، وأنا أوليك الوزارة، فطالع الحافظ بذلك، فأمر بالقبض عليه، فقبض واعتقل.

وفيها قدم، في جمادى الآخرة، من دمشق الأمير مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وإخوته وأهله، ومعهم نظام الدين أبو الكرام محسن وزير أنر

صاحب دمشق، معاضدين له، فأكرم مثاهم وأنزلوا، وأفيضت عليهم العطايا، وتواترت عليهم الإنعامات.

سنة أربعين وخمسة

فيها أعيد نظر الدواوين والأترار والخزائن إلى القاضي الموفق أبي الكرم محمد بن معصوم التنيسي في جمادى الأولى.

سنة إحدى وأربعين وخمسة

فيها خرج على الحافظ أمير من المماليك يعرف ببختيار، يطلب الوزارة، بأرض الصعيد، فندب إليه عسكريا عليه سلمان بن يونس اللواتي، فمضى إليه وحاربه، فانهزم وهو من ورائه، حتى أدركه وأخذه أسيرا وقتله.

وفيها قدم صافي الخادم، أحد خدام المتقي، من بغداد فارا، في ثالث عشري جمادى الأولى، خوفا، فأكرمه الحافظ.

وفيها منع من التعرض لصرف شيء من المال الحاضر من الأعمال في جرائم المستخدمين، وأن يكون مايسبب منها على البواقي والفاضل في هذه السنة.

وفيها ملك نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر حلب بعد أبيه.

وفيها ملك رجار بن رجار ملك صقلية مدينة طرابلس الغرب وولى عليها.....ابن مطروح.

سنة اثنتين وأربعين وخمسةائة

فيها صرف أبو الكرم التنيسي في ربيع الآخر، وأعيد نظر الدواوين للقاضي المرتضى المحنك.

وفيها سير الحافظ لظهير الدين صاحب دمشق هدايا وخلعا وتحفا.

وفيها خرج رضوان من نقب نقبه بالقصر، وذلك أن الحافظ لما اعتقله بالقصر أرسل يسأله في أشياء، من جعلتها زيارة نجم الدين بن مصال له في الوقت بعد الوقت، فأجابه إلى ذلك لثقتة بابن مصال، فحضر في يوم من الأيام ابن مصال لخدمة الخليفة، وبدأ بزيارة رضوان، فدخل إليه ومعه مشدة فيها رقع بحوائج الناس ليعرضها على الحافظ، وكانت عادته ذلك، فاحتاج إلى الخلاء، فترك مشدته عند رضوان ودخل الخلاء، فأخذ رضوان الرقاع ووقع بخطه عليها كلها بما يسوغ التوقيع به، وأثرها وطواها في المشدة، وخرج ابن مصال فأخذها ودخل على الحافظ، وقد علم أنه كان عند رضوان فقال له: كيف ضيفنا؟ فقال: على غاية من الشكر لنعمة مولانا وجواره، وأخرج رقعة من تلك الرقاع ليعرضها على الخليفة فوجد عليها التوقيع بخط رضوان، فأمسكها وأخرج غيرها، فإذا هي موقع عليها أيضا، وكان الحافظ يراه، فقال: ما هذا؟ فاستحيا ابن مصال عندما تداول الخليفة الرقاع وعليها توقيع رضوان، فقال له الحافظ: يانجم الدين، مازلت مباركنا علينا والله يشكر لك ذلك، لقد فرجت عنا غمة، فقال: كيف يامولانا؟ قال: رأيت البارحة رؤيا مقتضاها أنه ربا يشركنا في كثير من أمرنا، فالحمد لله إذ كان هذا وكتب على الرقاع أمضاها بخطه، وخلع على ابن مصال.

فلما طال اعتقال رضوان أخذ ينقب بحيث لا يعلم به إلى أن انتهى النقب من موضعه الذي هو فيه إلى تجاه فندق أبي الهيجاء، وخرج

النقب عن سور القصر، وكان قياس مانقبه خمسة وثلاثين ذراعاً، فظهر منه بكرة يوم الثلاثاء، ثالث عشرين ذي القعدة، في الجيزة، فالتف عليه جماعة من لواته وعدة من الأجناد، وسمع به الطماعون، وكان للناس فيه أهوية، فندم الحافظ على تركه بغير حارس، وأخذ في العمل.

فلما كان ثالث يوم عدى رضوان من اللوق وسار إلى القاهرة، فخرج إليه عسكر الحافظ وتحاربوا معه عند جامع ابن طولون، فهزمهم، وسار في إثرهم إلى القاهرة، فدخلها في الرابعة من نهار الجمعة سادس عشره، ونزل بالجامع الأحمر، فغلق الحافظ أبواب القصر وامتنع به، فأحضر رضوان أرباب الدولة والدواوين، وأمر ديوان الجيش بعرض الأجناد وأخذ أموالاً كانت خارجة من القصر، وأنفق في طوائف العسكر، وأرسل إلى الحافظ يطلب منه مالا، فسير إليه صندوقاً فيه مال وقال له: هذا الحد الذي أراده الله، فاسترض على نفسك.

وأنت ضيافات الناس إلى رضوان، فاستعدى الحافظ أحد مقدمي السودان سرا وقال له: إني بكم واثق، فقال: ما ادخرنا هذا إلا لمولانا، فقال: كم أصحابك؟ قال: عشرة، قال: لكم عشرة آلاف دينار واقتلوا هذا الخارجي علينا وعليكم، فأنتم تعلمون إحساننا إليه وإساءته إلينا، فقالوا: يامولانا السمع والطاعة، ورتبوا أنهم يصيحون حول الجامع الأحمر: الحافظ يامنصور، فلما فعلوا ذلك قلق وقال لمن حوله: ما كل مرة يصح لهؤلاء الكلاب مرادهم، فحسنوا له الركوب ظناً منهم أنه إذا ركب إلى بين القصرين لم يجسر أحد عليه، فعندما ركب ضربه واحد من السودان في فخذه ضربة شديدة، وتداركه آخر بضربة، وتوالت عليه الضربات، فقتل في الساعة الحادية عشرة من نهار الجمعة المذكور، وقطعت رأسه وحملت إلى الخليفة الحافظ، فسكنت الفتنة، وهدأت الغوغاء.

ثم إن الحافظ بعث بالرأس إلى امرأة رضوان، فلما وضعت في حجرتها قالت: هكذا يكون الرجال.

وكان رضوان سنيا حسن الاعتقاد، شجاعا، مقداما، قوي القلب، شديد البأس، ولد ليلة عيد الغدير من ذي الحجة، سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وترقى في الخدم إلى أن ولي قوص وإخميم في سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، إلا أنه كان مع حسن عبارته وغازاة أده طائش العقل قليل الثبات، لا يحسن التدبير، ولا يتأتى له سياسة الأمور لعجلته وجرأته، وكان أخوه الأوحده إبراهيم أثبت عقلا منه.

ومن جملة ما كتب له في تقليد الوزارة بعد بهرام من إنشاء أبي القاسم ابن الصيرفي: «... لأنك أذهبت عن الدولة عارها، وأمطت من طرق الهداية أوعارها، واستعدت ملابس سيادة كان قد دنسها من استعارها».

ولم يستوزر الحافظ بعد رضوان أحدا، وأعاد النصراني المعروف بالأحرم إلى ضمان الدولة، على ماتقدم، ثم نقم عليه لكثرة المرافعين واعتقله، وطلب منه المال فلم يسمح بشيء، فركب الحافظ يوما ووقف على باب السجن الذي هو فيه من القصر، وأمر به، فأحضر إليه، وقال له: كم تتجالد؟ أريد منك مالي على لسان صاحب الستر، فبينما الخليفة يخاطبه إذ أخذ كفا من تراب وجعله في فيه، فقال له الحافظ: ما هذا؟ فقال: ما لا ينبغي نقله إلى مولانا، صلوات الله عليه، فغضب عليه، وأمر بإحضار أبيه وأخيه، وكانا معتقلين، فأخرجاه، وقتل الأحرم وأخاه، وأبوهما ينظر قتلها، ثم قتل الأب، وأحاط بأموالهم فحصل منهم ما يزيد على عشرين ألف دينار عينا.

فيها مات الشيخ تاج الرياسة أبو القاسم علي بن منجب بن سليمان، المعروف بابن الصيرفي الكاتب، في يوم الأحد لعشر بقين من صفر،

ومولده في يوم السبت الثاني والعشرين من شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة، وكان أبوه صيرفيا وجده كاتباً، وأخذ صناعة الترسل عن ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج، وتنقل حتى صار صاحب ديوان الجيش، ثم انتقل معه إلى ديوان الإنشاء، ومات الشريف سناء الملك أبو محمد الزيدي الحسيني، ثم تفرد بالديوان فصار فيه بمفرده، وله الإنشاء البديع والشعر الرائع، والتصانيف المفيدة في التاريخ والأدب.

سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة

فيها توجه العسكر، في ثالث صفر، لقتال لواتة وقد تجمعوا وعقدوا الأمر لرجل قدم من المغرب وادعى أنه ولد نزار بن المستنصر، فسار إليهم العسكر وواقعهم على الحمامات وانهمز منهم العسكر، فجهز الحافظ عسكراً آخر، ودس إلى مقدمي لواتة مالا جزيلاً، ووعدهم بالإقطاعات، فغدروا بابن نزار وقتلوه، وبعثوا برأسه إلى الحافظ، ورجعت العساكر في ربيع الأول.

وفيها صرف القاضي المكين الموفق في الدين أبو الطاهر اسماعيل بن سلامة الأنصاري عن القضاء، لسبع خلون من المحرم، واستقر على الدعوة الموفق الأمين، كمال الدين، واستخدم في وظيفة القضاء، وكان كريم الأخلاق، حليماً، عليه سكينه ووقار، مليح الشيبة، ظريف الهيئة.

(وفيها توفي) أبو الفضائل يونس بن محمد بن الحسن المقدسي القرشي، المعروف بجوامرد، خطيب القدس.

وفيها بلغ النيل تسعة عشر ذراعاً وأربعة أصابع، ففاض الماء حتى بلغ إلى الباب الجديد أول الشارع، خارج باب زويلة، فكان الناس يتوجهون من مصر إلى القاهرة على ناحية المقابر لامتلاء الطريق بالمياه، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر له الحزن والانقطاع، فسأله خواصه عن

ذلك، فأخرج له كتابا وقال: انظر هذا السطر، فإذا فيه: «إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عبد المجيد» ثم قال: هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا، وما يأتي بعدها، فاتفق أنه لم تنسخ هذه السنة حتى مرض الحافظ مرضة الموت.

وفيهما انقرضت دولة بني باديس، وذلك أن الغلاء اشتد بإفريقية من سنة سبع وثلاثين وخمسة إلى سنة اثنتين وأربعين حتى أكل الناس بعضهم بعضا، وخلت القرى، ولحق كثير من الناس بجزيرة صقلية، فاغتنم رجار ممتلكها الفرصة وبعث جرج، مقدم أسطوله، على نحو مائتين وخمسين شينيا، فنزل على المهديّة ثامن صفر سنة اثنتين وأربعين، وبها الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس، ففر بأخف حمله وتبعه الناس، فدخل جرج المهديّة بغير مانع، واستولى على قصر الأمير حسن، وأخذ منه ذخائر نفيسة وحظايا بديعات.

وعزم حسن على المجيء إلى مصر، فقبض عليه يحيى بن العزيز، صاحب بجاية، ووكّل به وبأولاده، وأنزله في بعض الجزائر، فبقي حتى ملك عبد المؤمن بن علي بجاية في سنة سبع وأربعين، فأحسن إلى الأمير حسن وأقره في خدمته، فلما ملك المهديّة تقدم إلى نائبه بها أن يقتدي برأي حسن ويرجع إلى قوله.

فكانت عدة من ملك من بني باديس بن زيري بن مناد تسعة، ومدتهم، من سنة إحدى وستين وثلاثمائة إلى سنة ثلاث وأربعين وخمسة مائة واثنان وثمانون سنة.

وفيهما بعث رجار بن رجار ملك جزيرة صقلية إلى المهديّة أسطوله، مائتين وخمسين من الشواني، مع جرجي بن ميخائيل، فجدد في حصارها حتى أخذها في صفر منها، وملك سوسة و صفاقس وملك رجار بونة.

سنة أربع وأربعين وخمسمائة

فيها وقع الاختلاف بين الطائفة الجيوشية والطائفة الريحانية، فكانت بينهما حروب شديدة قتل فيها عدة من الفريقين، وامتنع الناس من المضي إلى القاهرة ومن الذهاب إلى مصر، وابتدأت الحرب بينهم في يوم الخميس ثامن عشر جمادى الأولى، وتوالت إلى يوم السبت رابع جمادى الآخرة، فانهزمت الريحانية إلى الجيزة.

وهم العسكر بخلع الحافظ من الخلافة، فمات بقصر اللؤلؤة، وقد نقل إليه وهو مريض، بكره يوم الأحد، وقيل ليلة الاثنين، لخمس خلون من جمادى الآخرة، واشتغل الناس بموته.

وكان له من العمر يوم مات ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وأيام، منها مدة خلافته من يوم بويغ بعد أحمد بن الأفضل ثمان عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة عشر يوما.

وأصابته في ولايته شدائد، واعتقل، ثم لما أعيد تحكم عليه الوزراء حتى قبض على رضوان فلم يستوزر بعده أحدا، وإنما أقام كتابا على سنة الوزراء أرباب عثمائم ولم يسم أحدا منهم وزيرا، وهم: أبو عبد الله محمد بن الأنصاري، وخلع عليه بالحنك والدواة، فتصرف تصرف وزراء الأقاليم، وصعد المنبر مع الخليفة في الأعياد والجمع، والقاضي الموفق محمد بن معصوم التنيسي، وصنيعه الخلافة أبو الكرم الأخرم النصراني.

وكان الحافظ حازم الرأي، جماعا للأموال، كثير المدارة، سيوسا عارفا، ولم يكن أحد ممن ولي قبله أبوه غير خليفة سواه، وكان يميل إلى علم النجوم، وكان له من المنجمين سبعة، منهم: المحقوف، وابن الملاح، وأبو محمد بن القلعي، وابن موسى النصراني.

وفي أيامه عملت الطبلة التي كانت إذا ضرب بها من به قولنج خرج عنه الريح، وما زالت بالقصر إلى أن كسرت في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وترك من الأولاد أبا الأمانة جبريل، ويوسف، وأبا المنصور، اسماعيل، وكان مطعوناً عليه، فإنه ولي بغير عهد وإنما أقيم كفيلاً عن منتظر في بطن أمه، فلم يظهر للحمل خبر.

ومن محاسن ما يحكى عنه أنه كان يخرج في كل ستة أشهر عسكر من القاهرة إلى عسقلان لأجل الفرنج تقوية لمن بها من المركزية الكنانية وغيرهم، ويقدم على العسكر عدة، فيجعل على كل مائة فارس أمير، ويقدم على الجميع أمير تسلم إليه الخريطة فيكون أمير المقدمين، وتشتمل الخريطة على أوراق العرض من الديوان بالحضرة ليتفق مع والي عسقلان على عرض العسكر بمقتضاها، ويصدر التعريف من كاتب الجيش هناك إلى الديوان بالحضرة بذلك، ويسلم إليه مبلغ من المال لنفقته معونة لمن فاتته النفقة من العسكر، فإن النقباء الذين للطوائف يجردون من كان من الطوائف حاضراً ومن كان مسافراً في إقطاعه، فيأخذ صاحب الخريطة أوراقاً بمن سافر وهو في إقطاعه ليوصل إليه نفقته.

وكانت نفقة الأمراء مائة دينار لكل أمير، وللأجناد ثلاثون ديناراً لكل جندي.

واتفق مرة خروج العسكر إلى عسقلان وفيهم خمسة أمراء من جملتهم جلب راغب، الذي اتفق في حسن ابن الحافظ بعد موته ماتقدم ذكره، فلما سير إليه مائة دينار، نفقته، تجهز للسفر في جملة الناس، وسلمت الخريطة لأمرهم، فلما دخلوا على الحافظ ليودعوه ويدعو لهم بالنصر والسلامة على العادة، قضوا حق الخلافة وانصرفوا إلا جلب راغب فإنه

وقف، فقال الحافظ: قولوا للأمير ماوقوفك دون أصحابك، ألك حاجة؟ فقال: يأمرني مولانا بالكلام، قال: قل، فقال: يامولانا ليس على وجه الأرض خليفة ابن بنت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، غيرك، وقد كان السلطان استزلني فسفهمت نفسي وأذنت ذنبا عظيما عفوا مولانا أوسع منه وأعظم فقال له الحافظ: قل ما تريد غير هذا فإننا غير مؤاخذيك به، فقال: يامولانا قد توهمت أنك تحققت أي ماض في حالة السخط، علي، فقال له الحافظ: أنت غني عن هذا الكلام، وقد قلنا لك إنا ماواخذناك، فأي شيء تقصد؟ فقال: لايسيرني مولانا تبعا لغيري، فقد صرت مرارا كثيرة مقدما، وأخشى أن يظن أن هذا التأخير للذنب الذي أنا معترف قال: لا، بل مقدما وصاحب الخريطة، وأمر بنقل الحال عن المقدم الذي تقرر للتقدمة والخريطة إلى جلب راغب، وأعطي مائتي دينار وقال: له استعن بهذه فعد هذا من الحلم الذي قلما سمع بمثله.

وكان الغالب على أخلاقه الحلم، وكان مقدم المطالبيية يجيء إلى الخليفة الحافظ ويخبره بغرائب ماظهر، فجاء يوما وأخبر أنه وجد حوضا لطيفا قريبا من معلف الحمار، فلم يتعرض له، فندب الخليفة معه شاهدين حتى أتوا به، فإذا حوض مطبق بغطاء فكك عنه فإذا فيه صنم من رخام أبيض على هيئة الإنسان وهو واضح أصبعا في فيه وأصبعا أخرى في دبره فأمر الحافظ أحد الشاهدين أن يناوله ذلك، فلما أخذ الصنم ضرب ضربة عظيمة، فألقاه من يده وقد اشتد خجله، فقام موفق، أحد الأستاذين المحنكين، ليناوله إياه فحضر أيضا، فأمر الحافظ بتركه وعلم أنه طلسم للقولنج.

ووجد في مقطع الرخام سرب تحت الأرض فيه جرة مسدودة أحضرت إلى الأستاذ مفضل، المعروف بصدر الباز، فإذا فيها حنش من ذهب زنته ستة مثاقيل ونصف مثقال، وعيناه من ياقوت أحمر، وفي فمه جرس من ذهب، فأعلم به الحافظ، فلم يزل يبحث عن خبره حتى أحضرت له

عدة أحناش كبار، وأخرج ذلك الحنش المذكور فجعلت الأحناش الكبار تخرج رؤوسها ثم تحركها مرة أو مرتين وتسقط ميتة.

وكان الحافظ حريصا على علم السيمياء، فظهر في أيامه الشيخ أبو عبد الله الأندلسي، شيخ بني الأنصاري أوحده زمانه في علم السيمياء فسأله الحافظ أن يريه شيئا من ذلك، فأراه ساحة القصر قد صارت لجة ماء، فيها سفينة متعلقة وشواني حريبات قد خرجت على تلك السفينة وقاتلت أهلها، والحافظ يرى لمعان السيوف ومرور السهام وخفقان البنود، ورؤوس الرجال وهي تسقط عن كواهلها، والدماء تسيل، حتى سلم أصحاب السفينة لأصحاب الشواني فساروا بها والأبواق تزعق والطبول تضرب، إلى أن غابت عن الأبصار في لجج البحار، ثم كشف عن الحافظ فإذا هو قصره، ثم أمره أن يريه شيئا آخر: فقال: ليخرج من في مجلس أمير المؤمنين إلى منزله، فأمرهم، فخرجوا حتى صاروا إلى حيث خيولهم واقفة بباب القصر، فلما قدمت إليهم ليركبوا فما منهم إلا من رأى فرسه كأنه ثور وقرناه كأعظم ما يكون من القرون، فعادوا إلى الحافظ وأعلموه بما رأوا، فضحك وقال: أفدوا دوابكم منه، فقطع كل واحد منهم على نفسه شيئا فأمر له به وما زال مقبيا بمصر حتى مات.

وكان في أيام الحافظ أيضا ابن محفوظ، سأله أن يريه شيئا من أعماله، فأمر بأربعة أطباق فضة أن تحضر، فلما وضعت بين يديه امتلأت باسمينا في غير أوانه، وصار يعلو على كل طبق وهو مرصوص متماسك بعضه فوق بعض، إلى أن صار كأربعة أعمدة من رخام متقابلة.